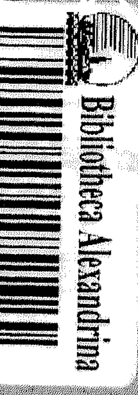
وزارة الثقافة والارشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

في الربوع الأندلسية

سامي الكيالي

رحلات
٣





في الربوع الأندلسية



وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

في الربوع الأندلسية

تأليف

سامي الكيالي

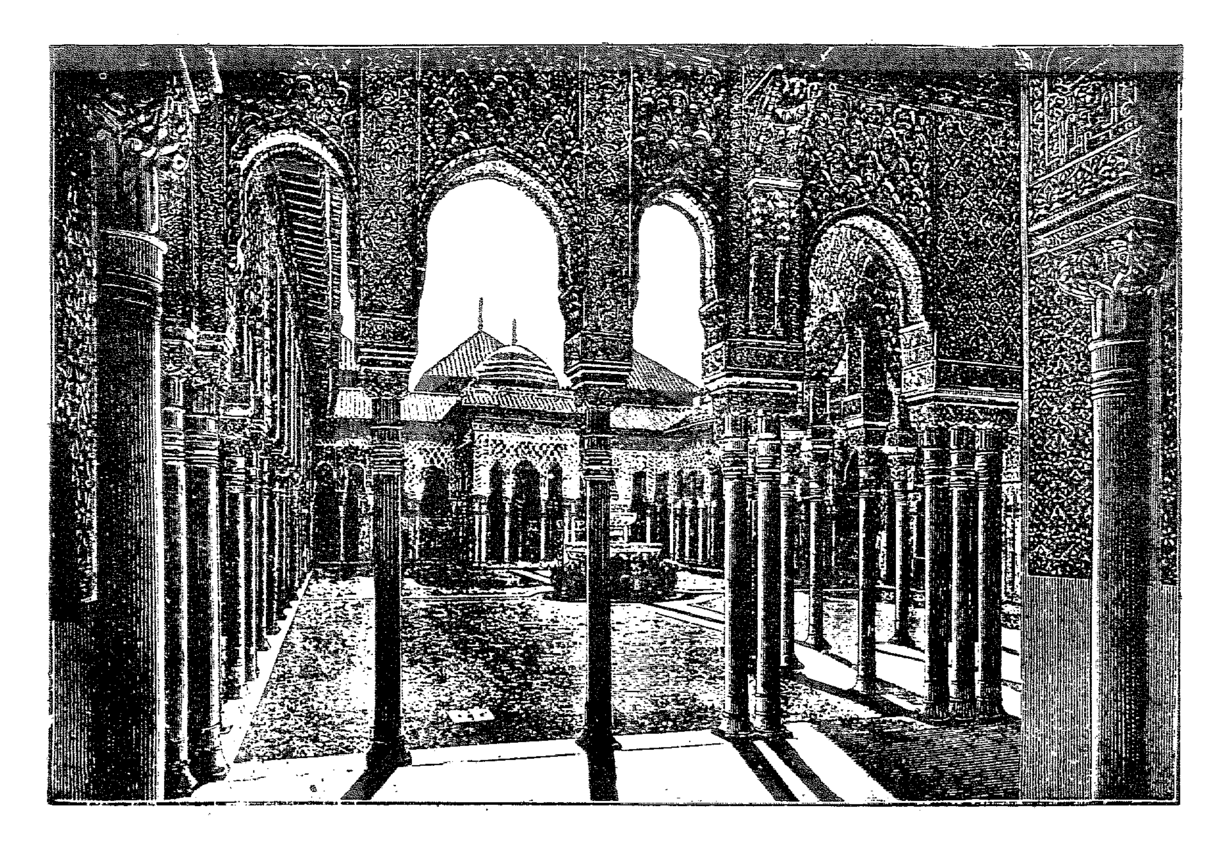
حلب - ١٩٦٣

سلسلة الرحلات
٣



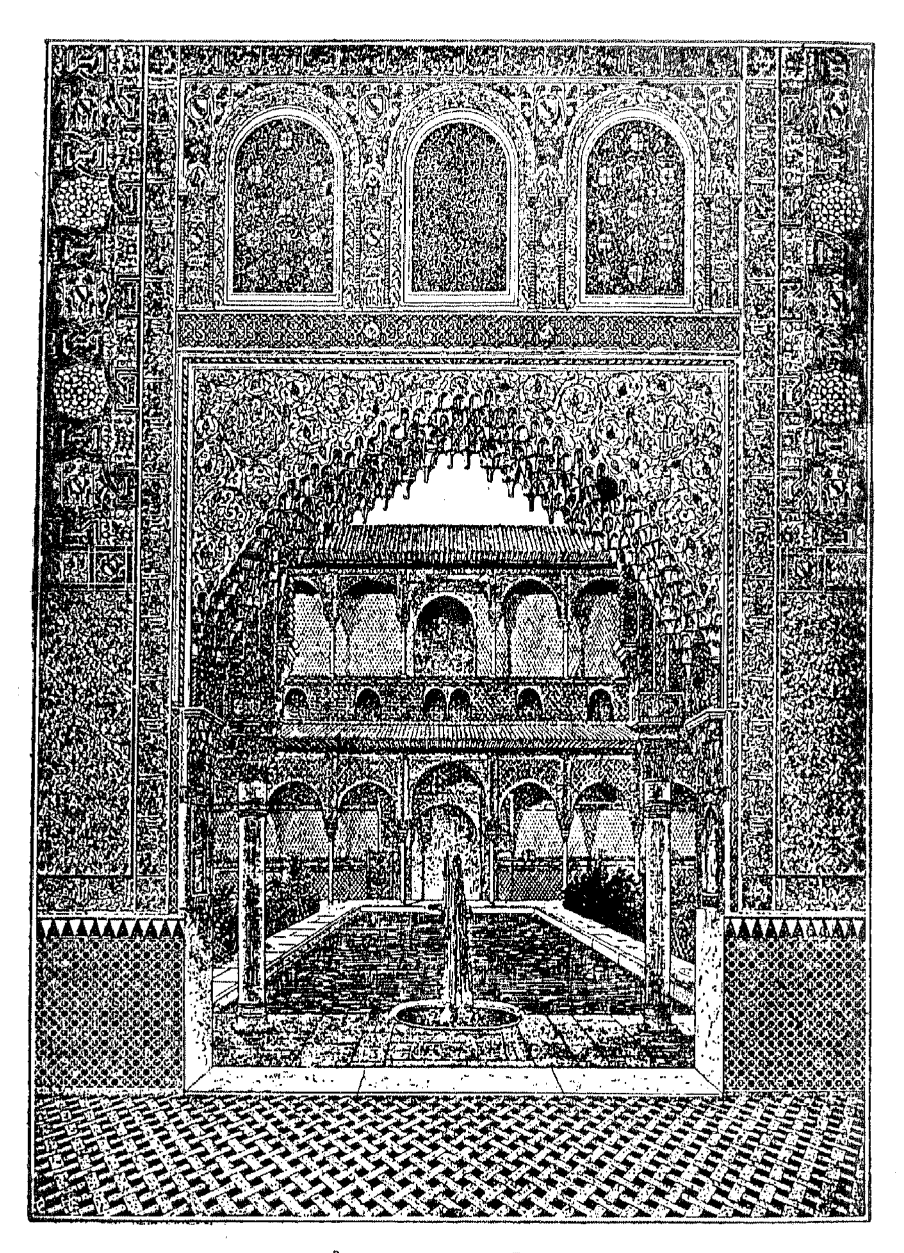
حلب . سورية . ص.ب : ٤١٥





قاعة الاسوار في قصر الحمراء





قاعة البركة في قصر الحمراء



في الربوع الأندلسية

لم تكن اسبانيا لتجتذبني الى ربوعها لولا الأندلس ، بلاد المجد المفقود ـ لولا الذكريات الأليمة التي تثيرنا نحن العرب ، ونلمس على وهجها تلك الأضواء التي لم تستطع الأيام أن تخمد شعلتها والتي ترمز الى أزهى حضارة أبدعها العرب في تلك الربوع .

نعم ، لم تكن اسبانيا لتجتذبني الى مفاتنها لولا تلك الأمجاد التي أشاد صروحها الأجداد وأضاعها عبث الأحفاد . .

لقد قام البناة الأول ، اولئك الأبطال المغامرون ، ففتحوا أرض الأندلس بعد أن سفكوا دماءهم السخية ، وباعوا نفوسهم الزكية رخيصة في سبيل أقدس رسالة آمنوا بها فاستطاعوا في فترة من الزمن ، أن يخلقوا دنيا من المفاخر والمآثر . .

ولكن اصطراع الاحفاد في سبيل الغايات الخسيسة ، وتكالب الامراء على شهوة الحكم ، واقتتالهم لاجل رئاسات خاوية ، هو الذي أضاع من أيدينا تلك الجنان المزدهرة والفراديس الجميلة المخضوضرة التي ترمز الى عبقرية العرب في الخلق والابداع ، تلك العبقرية التي انتجت لدنيا المعرفة الانسانية أدباً وحكمة

وفلسفة وفنـــاً ، وأبدعت حضارة مخضلة الألوان لا تزال آثارها بالرغم من تقادم الزمن — تزهو برونقها الى الآن فتجتذب اليها رجالات الفكر من شتى أقطار الدنيا ، أدباء وعلماء وفنانين وَمنْ لهم مشاركة بهذه الفنون ، فيقفون ازاء رائعها حائرين مشدوهين ..

وإنه لبدهي أن تجتذب تلك الحضارة التي ترمز الى ماضي العرب المشرق ومجـدهم الأثيل والتي ترينا ألواناً زاخرة من إبداعهم في الفنون وترفهم في أنماط الحياة — بدهي أن تجتذب أمثالنا ولا سيما الذين قضوا شطراً من حياتهم الفكرية بقراءة الادب الأندلسي والاستمتاع برقته وجزالته وفيض حيويته وبديع صوره وتلاوينه .

ولقد فكّرت بزيارة الأندلس مراراً .. ولكن لم تتيسر لي الاسباب ، ولم تسمح لي الظروف ..

وجاءت رحلتي الى الولايات المتحدة وسيلة لتحقيق هذه الأمنية التي طالما حنّتْ اليها النفس حنيناً ملحاً .. وأي حنين ؟ فما كدت أعتزم العودة الى أرض الوطن .. حتى جعلتُ الحجَّ الى الاندلس فريضة كالفروض المقدسة .

وإنها لفريضة في شرعة المؤرخ والأديب ، فلم أكد أصل الى باريس ، بعد عودتي من نيويورك وأمكث فيها بضعة أيام أقضي فيها بعض لباناتي ، وأستعيد بعض ذكرياتي ، نعم ، لم أكد أقضي فترة في باريس حتى قصدت مدريد على متن طائرة من طائرات « الايرفرانس » فوصلت اليها ظهراً في الرابع من شهر شباط سنة ١٩٥٤ .

ولم أكد أنزل من الطائرة وأدخل بهو المطار حتى وجدتني في رعاية مفوضيتنا ، وسرعان ما تمّ الاجراءات الجمركية وتأشيرة الأمن العام .

وبعد لحظات كنا في قلب مدريد ، في فندق بلازا ، وهو من الفنادق الحديثة الكبرى حيث حجزت لي غرفة قبل وصولي بأيام .

بعد أن وضعت أمتعتي وتناولت غذائي نزلت الى المدينة أتعرف الى

وجه مدريد ، أو مجريط كما كان يسميها العرب ، ولا أعلم من أين جاءتها هذه التسمية ؟ .

إن مدريد كأكثر عواصم أوروبا فيها الكثير من مظاهر الحياة ، وبالرغم من وفرة هذه المظاهر تبدو أقل عنفاً من باريس ..

وهي بمظهرها الديني أقرب الى روما ، وقد تفوقها في هذا المضمار ، نعم ، قد تفوق مدريد عاصمة الكثلكة ، ومقر الفاتيكان في الكثير من مظاهرها الدينية .. فأنت حيث تسير في جوادها وشوارعها ومنعطفاتها تواجهك الكنائس والأديرة والكاتدرائيات . . وقد لا تسمع من أبراجها غير قرع النواقيس ، حتى ليخيل اليك ، لأول وهلة ، أنك تعيش في جوٍ مفعم بروح الدين .. ولكن الواقع غير ذلك .

فبالرغم من الطابع الديني الذي يغمرها ، فهي مدينة ذات حيوية مسكرة.. تلمس ذلك عند سكانها الذين يحسون من الأعماق نزعة الاستمتاع بالحياة ، احساساً قوياً . وقد ترنّ في أذنك وأنت تتحدث الى المدريدي هذه النبرات الموسيقية التي تعبّر عن أنسه وبهجته . . عن مرحه وفيض حيويته . . وحيثما سرت ، ولا سيما في هـذا الشارع المتد بين متحف برادو وساحة كاستليانا ـ شانزه ليزه مدريد ـ والذي يحلو لبعضهم أن يسميه شارع الغرام ، أو طريق الغزل ـ أقول حيثما سرت في هذا الشارع تواجه الفاتنات وقد ملأن الأرصفة جيئة وذهابا . وترى المقاصف والمقاهي تغص بالرواد الذين يغمر الحبور وجوههم . يتحدثون ويهزجون ، يمزحون ويتندرون ، ويمرّ بهم الوقت ، كما يمرّ بنا ، في أشياء تافهة ليست بذات بال ..

إن الاسباني لا يريد أن يرهق نفسه بالعمل ، لا يريد أن يكون آلة تدور إنه يعمل ولكن في هذه الحدود التي تفرضها طبيعة العمل ونظام الحياة . . ثم تصبو نفسه الى الاستمتاع بأجمل ما في الحياة من متع . . يحاول ما استطاع أن ينعتق من القيود والتقاليد الى حياة اللهو والمرح ، يسهر الى ساعة متأخرة من الليل في جوٍ مرح ليفيق في العاشرة ، وقد يباشر عمله في الحادية عشرة ..

وإذ ألمع الى هذه الظاهرة أشير الى الحياة المترفة التي يعيشها البورجوازيون الذين يؤمنون ايماناً مطلقاً بالفلسفة الأبيقورية .. ولا أجرد الكادحين من هذه الحياة أيضاً . . ولهؤلاء أيضاً نصيبهم من حياة المتعة والسرور في نطاق أوسع من بيئاتهم الشعبية حيث يجدون ألواناً مختلفة من حياة العبث والمجون . تخفف عنهم بعض أعباء الحياة وأثقالها .

وتكاد تكون فلسفة المتعة التي لاقت هوى من نفوس الاسبانيين هي شعارهم جميعاً .. ويقولون ما دام عبر الانسان هذا المرور السريع من هذه الدنيا ، عليه ، قبل رقدته الأخيرة ، أن يستمتع بجمال الحياة وأطايبها على أوسع مدى ..

إنهم لا يفكرون بالموت ويرونه حادثاً طبيعياً ، يجب على الانسان الا يخافه ، والا يفكر بأمره .. بل عليه أن يعب من رحيق الحياة أجمل ما فيها قبل أن يقرصنا الزمن بمقراضيه ذوي الشقين الحادين .

وبعد فلا أريد أن استرسل في وصف الحياة الاسبانية ولما اندمج في صميمها هذا الاندماج الذي يجعل لهذه الخواطر التي أنثرها قوة اليقين . فقد أكون متسرعاً في حكمي ، ولا سيما ولما اقض فيها غير فترة قصيرة ، ولا تمكنني هذه الفترة أن أعطي حكماً صادقاً على منازع هذه الحياة .

ولكن هذا هو الانطباع الذي لمسته من زيارتي الاولى .. وكل ما أستطيع أن أقوله عن هذه المدينة الجميلة أنها مزيج من الشرق والغرب . أي من روحانية الشرق ومادية الغرب .

أخذت من الشرق صفاءه واشراقته ، ومن الغرب ملامح من عنفه وماديته ، فكان لها من هاتين الظاهرتين حياة أميل الى الاستمتاع والتأمل منها الى الكد والجد والعمل .

لم تطل إقامتي في مدريد لأنها لم تكن المقصودة من هذه الزيارة ، وأخذت أعد أهبتي لزيارة الاندلس . . ولهذا لم يتيسر لي أن أغوص الى أعماقها . . أن أزور كنائسها ، وكاتدرائياتها ، آثارها ومتاحفها ، حدائقها ومنتزهاتها ،

قصورها التاريخية وعماراتها الحديثة ، ومعاهدها الثقافية وجامعتها الكبرى ـ كانت جولة عامة في أطراف المدينة ، في قلبها الزاخر ، بمجموع الناس ، في المشارب والمقاصف .. وهي مدينة تغري زائرها أن يمكث فيها أياماً وأسابيع ، وإني لأرجو أن أقضي منها لباناتي بعد عودتي من زيارة الأندلس ، فردوسنا الحبيب المفقود .

الأندلس

« الاندلس » كلمة عذبة ولفظة ذات جرس وايقاع ، تنزل من نفس العربي منزلة النغم الحلو من أذن الموسيقار .

وبلاد الاندلس اسم لمقاطعة كبيرة من اسبانيا فتحها العرب في القرن الأول الهجري وظلوا فيها ثمانية قرون نشروا خلالها مدنية وحضارة لا تزال آثارها باقية الى الآن .. ثم تخلوا عنها مرغمين فكانت قصة ذات بداية ونهاية . تعددت فصولها ومشاهدها ـ بداية مشرقة تحمل في اطوائها العزة والمجد والكرامة ، ونهاية قاتمة تثير في النفس الألم والحسرة والدموع .

من مغامرة فذة تحمل ثورة الايمان لنشر رسالة الى استخذاء وتكالب على أعراض زائلة ..

من النغم المسكر الى البكاء والعويل

وبالرغم من هذه النهاية المحزنة فما يزال العربي في ثورة هائجة من الحنين لزيارة ذلك الفردوس الجميل الذي أضاعته الشهوات وعبثت به الاهواء والاحقاد ..

نعم ، ان قصة فتح العرب للاندلس من قصص البطولة الخالدة في تاريخ الامم وتاريخ الحضارات ـ قصة تحمل في اطوائها الحرب والمجد ، الادب والحضارة ،

العلم والفن ، الرقص والموسيقى ، ترف العيش وبلهنية الحياة ، الدسائس والمؤامرات . . وكل ما في الطبيعة البشرية من نوازع الحياة ـ خيرها وشرها ، جمالها وقبحها ، ايمانها وضلالها ، فجرها المشرق وليلها المظلم الطويل .

ولن نكتب في هذه الرسالة ، هذه القصة وقد كتب عنها مئات الكتب وآلاف الرسائل والبحوث ولا يزال المجال متسعاً ، بل نريد من هذه الرسالة ان نسجل بعض انطباعات هذه الزيارة ، نريد ان نرسم . بكلمات شعورية صادقة ، بعض الهجسات التي مسّت شغاف القلب وحنايا الصدر فهزّت النفس وأثارت الدموع .. وفي اعتقادي ، ان قصة تاريخ الاندلس بدىء بكتابتها منذ الآن. . . فقد أخذ بعض الباحثين يعيدون النظر في أكثر ما كتب عن الاندلس ـ باحثوا العرب والافرنج على السواء . . واننا لنقرأ كل يوم بحثاً جديداً يكشف لنا عن أبهى مظاهر هذه الحضارة ـ يكشف عنها مستشرقون منصفون أخذوا يعكفون على تلاوة الوثائق والمستندات التي تحتفظ بها المعاهد الاسبانية ـ وقد كان الدكتور طه حسين ـ عميد الادب العربي ، أول من التفت الى هذه الناحية ، اي الى دراسة الحضارة الاندلسية من جديد . . وسرعان ما حقق فكرته ، حين كان وزيراً للمعارف ، بتأسيس « المعهد المصري » للدراسات الاسلامية بمدريد ، وهو معهد جعل أهم غاياته اقامة حلقة عربية في اسبانيا الحديثة لدراسة الحضارة الاسلامية الاندلسية دراسة موضوعية .

وفي اعتقادي ان تاريخ الاندلس ، أو تاريخ العرب في الاندلس سيكتب من جديد حيث تبدو حضارة العرب اكثر اشعاعاً مما عرفناه من الدراسات الماضية . . وقد كانت الى الآن دراسات عاطفية اكثر منها علمية .

• • •

اطلق كتاب العرب اسم الاندلس على شبه جزيرة « ايبريا » المكونة من دولتي اسبانيا والبرتغال الحاليتين . وكان اطلاقهم هذا الاسم بطريق التغليب ، والواقع ان الاندلس هو اقليم في جنوب اسبانيا .

وتقول بعض الروايات ان العرب اخذوا اسم الاندلس من اسم سكانها

الاصليين الفانداليس Vandales فقالوا فانداليسا او فاندالوزيا Vandalitia واطلقوا عليها اسم الجزيرة ، كما قلنا . وذلك من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس .

وفي الاسبانية اندلوثيا Andalucia ، وهي في الاصل فندالوثيا سميّت بذلك من الفنداليه ، وهي أمة نزلتها في القرن الخامس للميلاد .

وقد ذكر المقري انها سميّت بذلك باسم اول من سكنها على قديم الزمن ، وهم قوم من الاعاجم يقال لهم اندلوش (١) .

وذكر ابن الاثير ان النصارى يسمون الاندلس « اشبان » باسم اشبانس احد ملوكها وهذا هو اسمها عند بطليموس ، وذكر دانيفل ان الاشتقاق مأخوذ من كلمة « فاندالوسيا » أي بلد الوندال (٢) .

والمجال لا يتسع لسرد الكثير من النصوص والروايات فحسبنا هذا الالماع وهو الماع يرمز الى ان الاندلس هو القسم الجنوبي من بلاد اسبانيا .

وقد وصف الادباء والشعراء والمؤرخون جمال أرضها ووفرة حدائقها وكثرة كرومها واعتدال هوائها . وخصوبة ارضها وعذوبة مياهها ، وهو وحده يؤلف الكثير من المجلدات .

هل اصرف النظر عن زيارة غرناطة واشبيلية وقرطبة والطواف بجنّة العريف والحج الى قصر الحمراء . . نعم ، تنازعتني هذه العوامل بعد أن رأيت السماء تمطر ثلجاً وتنذر بالعواصف وقد حـــذرني بعضهم من وعورة الطريق والتصعيد في الجبال وهي مغمورة بالثلوج ، وظللت فترة بين اليأس والرجاء ، بين الاقدام والاحجام ، ثم قلت أأصل الى المورد العذب ولا أبلّ ريقي بجرعة ماء بعد هذا الظمأ الطويل — ثم أي لون من الحزن يثيرني حين أعود الى الوطن ولم تكتحل عيناي بمرأى فردوسنا المفقود وقد اصبحت منه قاب قوسين او ادنى كما يقول العرب القدماء..

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٦٧
(٢) كتاب ممالك اوروبا ص ؟

وصمّمت على السفر . . وقلت لا بد من تضحية بالوقت وبالراحة ..

واخذت انظّم برنامج هذه الرحلة ، وفي مدريد عدة شركات للنقل تقوم بنقل سواح العالم لمشاهدة الاندلس ، واتصلت بأكبر هذه الشركات ، وقطعت تذكرة السفر ، ودفعت قرابة خمسة آلاف بيزيتا لرحلة تدوم اسبوعاً ، وفي الصباح ركبت سيارة البولمان التي أعدّتها شركة « مليا » واخذت طريقي الى غرناطة ، مع رهط غير قليل من سواح الاميريكان والانكليز ، والكنديين ، وكنت العربي الوحيد بين هذا الركب لزيارة مناطق المجد المفقود .

في الطريق الى غرناطة

٤ شباط ١٩٥٤

أي ثورة من الفرح تملكتني حين اعتزمت السفر الى الاندلس

كانت غرناطة بدء الرحلة ، ولغرناطة مكانتها في تاريخ الاندلس . وعلى مسرحها مثلث مئات الروايات .

عرفت المجد والزهو والسلطة والكبرياء ، ثم كان سلاطينها بقية ملوك العرب في الاندلس فكانت المأساة ..

تركنا مدريد في العاشرة صباحاً وقد احالها الثلج الى حلّة بيضاء واخذنا طريقنا الى غرناطة . . وهي تبعد اربعمائة كيلو متر عن مدريد والطريق اليها معبدة .. ولم يعد الشتاء ، ببرده ومطره ، وجليده وثلوجه ورياحه وعواصفه لم يعد الشتاء ليعيق المسافرين عن السفر ما دامت ادوات الركوب اصبحت سهلة هينة .. ولا سيما وسياراتنا البولمان قدجهزت بكل وسائل التدفئة والراحة ..

لقد بدت الارض الاسبانية ، ذات المزارع الواسعة ـ بدت تتكشف لنا بعد ان ابتعدنا عن العاصمة . . وكلما اتجهنا الي الجنوب . . أي كلما اقتربنا من الاراضي الاندلسية ازددنا حنواً وحباً لهذه الارض التي تطوي رفات الاجداد. وقد كان يزيد في ثورة هذا الحب ما نراه من مظاهر الحياة وكأننا في بلاد الشام..

فهذه القرى التي مررنا بها قريبة الشبه بالقرى الشامية فالفلاح الاسباني لا يزال يفلح ارضه بنفس الطريقة التي يفلح بها القروي ارضه في بلاد الشام . وانك لترى هذا الحقل وقد اقيم على طرفه دولاب الماء . وهو لا يزال يعتمد على الدابة في فلاحة الارض ولا يتردد ان يعتمد « التراكتور » ، كما هو الحال عندنا ، اذا توفر له المال . وهذا راع قد سار خلف الماشية وهو يهزج باغان ريفية وقد اعتمد شبّابته كما يفعل الرعاة عندنا تماما ـ وهي اغان تمت بصلة وثقى الى اغاني الرعاة ، وقد يغني « الموّال » وهو على ظهر حماره . وهذه العجلات التي تنقل الخضار والمحاصيل الزراعية هي التي نراها في طريقنا من القرى الى المدن . من دوما الى دمشق ومن الباب الى حلب .. وهؤلاء القرويات وقد عدن من العين يحملن الجرار على رؤوسهن ويتحدثن هذه الاحاديث الساذجة التي تتصل بحياة القرية ـ الاحاديث التي تتصل بالحبّ والمغامرات ـ هذه بعض المظاهر التي تراها في الريف الاسباني وانت في طريقك الى غرناطة .. وهي مظاهر تراها قريبة الشبه مما نراه في الريف السوري حين ننتقل من بلد الى بلد ـ من الشمال الى الجنوب مثلا .

كانت السماء لا تزال متجهمة الافق حتى اذا ابتعدنا عن مدريد وانحدرنا الى الجنوب اخذ ينكشف الجو .

نحن في دوس باريوس Dos barrios قرية الكاتب الاسباني الشهير سرفانتي . صاحب دون كيخوتي ـ القصة الانسانية الشهيرة ، وقد ذكرتني طواحين الهواء في هذه القرية والتي لا تزال كما كانت قبل ثلاثمائة سنة . ذكرتني بأبطال قصته وهزئه المرّ بهم . بابطال الفروسية الذين كانوا يعيشون في عالم الوهم ..

بعد ثلاث ساعات من مغادرتنا مدريد ، وكان النهار قد انتصف . تناولنا غذاءنا في قرية مانزاريست . . وهي مشهورة بتقديم ألذّ الاشربة الروحية. ثم والينا السير .. وقد اطلّ علينا الربيع بهذا النبت السندسي الحقيقي الذي غطّى السهول .. وبالرغم من أن الثلوج لا تزال تغمر الطريق فقد كانت السيارة تسير سرعة لا يلويها شيء حتى حين أخذنا نصعد جبال الاندلس ـ هذه الجبال الخضراء

المرتفعة ذات التعاريج الجميلة الـتي تطل مرتفعاتها على الأودية الظليلة .

لقد بدأنا نتحسس جمال الطبيعة في هذه المنطقة السحرية .. فحيثما اتجه نظر الانسان ير ابتسام الطبيعة في هذه الجبال المخضوضرة ..

كيف وصل العرب ، ابناء الصحراوات القاحلة الموحشة المقفرة الى هذه المناطق البعيدة ؟

كيف تسلقوا هذه الجبال وملكوا زمام أمرها ؟

كيف أقاموا الابراج والقلاع والقصور وأخذوا يفرضون ذاتهم وكيانهم على هذه المناطق ؟

بالايمان ـ ايمانهم بنشر رسالة . . ولا شيء إلا الايمان .

نعم ، أن ايمانهم بنشر رسالة يعم خيرها البشر ، وازدراءهم بزخارف الحياة هو الذي مكّن لهم ان يستمر حكمهم ، في هذه المناطق البعيدة ، ثمانية قرون . .

السائق يسير وئيداً وئيداً في قلب هذه الجبال التي ازدانت باشجار الزيتون وحيثما امتدّ نظر الانسان يجد مزارع واسعة .

لقد مرّت الساعات ونحن في قلب هذه الواحات الخضراء التي تزين هذه المناطق المزدهرة . .

في الرابعة والنصف وصلنا الى قرية بايلين Bailen . وهي ضاحية جميلة وقد عرجنا على فندقها الصغير الهوستيل El - Hostal وهو فندق وديع يقصده المصطافون في الصيف ، كما يجد فيه السائحون الذين يقصدون الاندلس ، قسطهم من الراحة لساعة أو بعض ساعة ، وقد استقبلتنا ربة الفندق بالترحاب ، وهي أندلسية الزي ، ذات عينين سوداوين ، وجمال أخّاذ . . قضينا فترة في جوه الدافيء نتناول بعض المشروبات . .

لقد لفت الدليل نظر ضيوفه الى شعار الفندق وهو :

اذا أردت أن تشرب لتنسى .. يجب ان تدفع سلفاً قبل أن تنسى !

ويظهر أن اكثر رواده من المعربدين الذين يريدون ان ينسوا واقعهم ليعيشوا

في عالم النسيان .

ولم تكن الخمرة شرابنا .. فشربنا الشاي ودخنا قبل أن ننسى ! وعدنا الى السيارة التي أخذت تسير بنا في هذه الجبال الى ان وصلنا الى منطقة ترتفع الفاً وخمسماية متر عن سطح البحر .. وكان الليل قد أسدل ستاره فلم نعد نتبين جمال هذه المناطق المرتفعة المزدهرة الخضراء . . وما زالت السيارة تنهب السير الى أن وصلنا الى غرناطة في التاسعة تماماً ، ودخلنا شوارعها المعتمة . . فلم نتبين على اضوائها الخافتة إلا السكون . . وبعد دقائق كنا بالقرب من الحمراء . . نعم . . بالقرب من قصر الحمراء .. فكدت اطير ثورة وفرحاً والماً . . وكانت كل خالجة في جسمي وفكري وحسي عيناً تتطلع .. ولكن الاشجار الباسقة قد حجبت عني رؤية القصر . ومن الصعب زيارته في جوف هذا الليل ـ والسيارة في طريقها الى الفندق لا تشعر بما يختلج في ضميري . . وما هي الا لحظات حتى دخلنا فندق غرناطة الكبير . . فندق الحمراء .. واذا بي أجدني في جوٍّ شبه عربي ـ جو عربي اخرس . البهو والقاعة والمدارج والاثاث ـ كلها ذات نمط عربي .. وقد زيّنت جدرانه بشعار ملوك بني الاحمر .. « لا غالب الا الله » .. ـ نقشت بالحروف العربية دلالة على ما تضمه غرناطة من آثار عربية . . فوقفت ازاء هذه النقوش في حيرة المسمور . . اذكر الماضي والحاضر . . وبينما انا في ذهولي إذ بالدليل يطلب جواز سفري ويدلّني على غرفتي . واصعد الى الغرفة لاضع امتعتي ثم أنزل لاتناول طعام العشاء .

وانتصف الليل وأنا في ثورة من الهواجس . أريد ان ينقضي الليل الطويل بغمضة عين لآخذ طريقي الى قصر الحمراء !

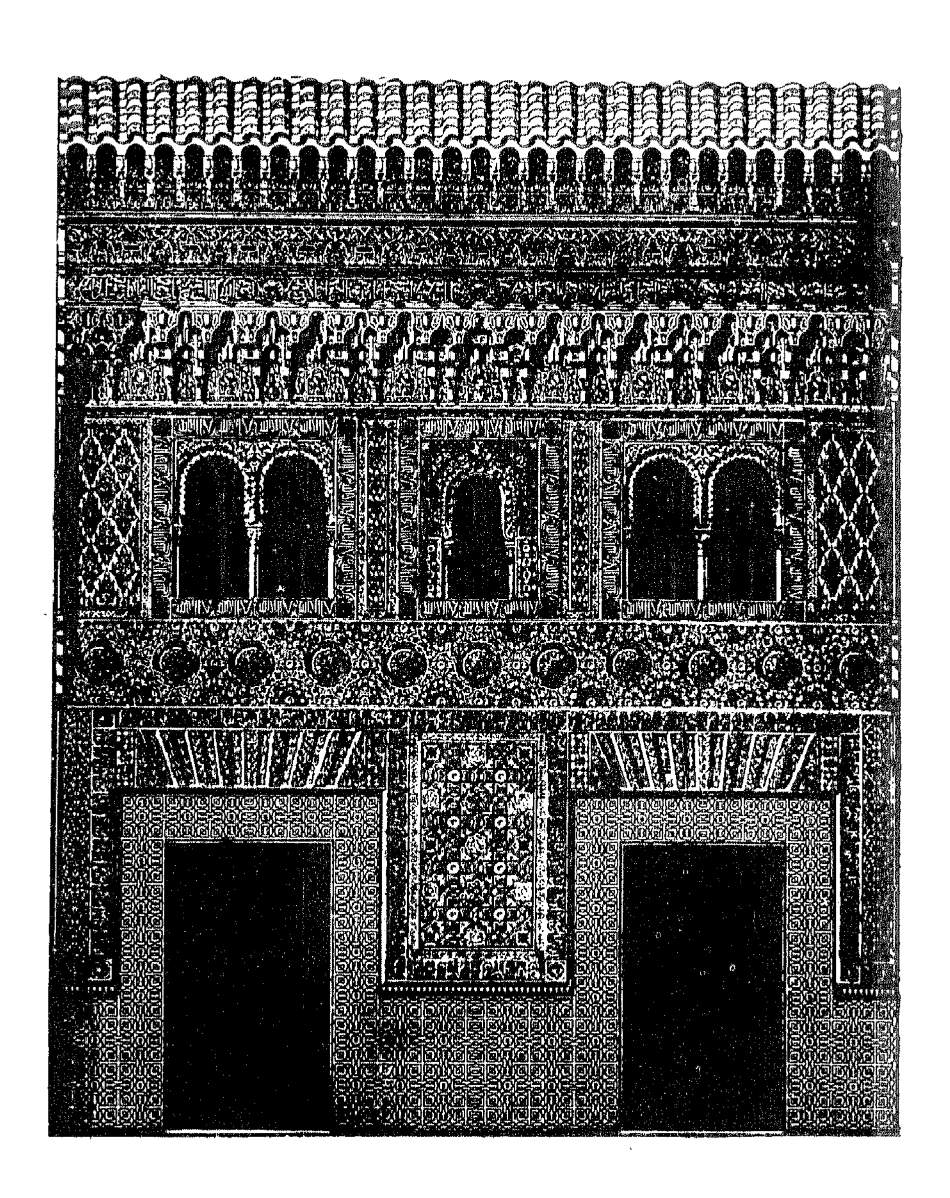
ليلة مؤرقة

٤ شباط ...

كانت غرناطة تلك الليلة مغطاة بالثلوج وقد كسيت أرضها بطبقة من الجليد وكانت الرياح تعصف بشدة . والمدينة مغمورة بسكون موحش أو خيل الي انها مغمورة بهذا اللون القاتم . ومع ذلك فلم ينقبض صدري لأنني جئت غرناطة وكلي ثورة من الشوق وبركان من الحنين .

أأخلو الى غرفتي لآخذ قسطي من الراحة بعد سفر نهار كامل من مدريد إلى غرناطة قطعناه في سيارة من سيارات بولمان الفخمة بين الجبال والوهاد . . لا . . لم اكد اتناول طعام العشاء حتى أخذت طريقي الى مقصف الفندق استمع الى الموسيقى الأسبانية لعلني أبدد بعض متاعب الطريق وهذه الوحشة التي احسستها حين دخلت المدينة . . وظلت فترة في جو مسكر من نغمات الموسيقى الأسبانية والرقص الأندلسي ثم شعرت بالتعب .. فتركت المقصف وصعدت الى غرفتي لأنام ملء عيني .

أويت الى سريري وكنت أقدر انني سأغفو من اللحظة التي سأضع رأسي فيها على الوسادة . . ولكن تقديري كان في غير موضعه . . ظللت فترة غير قصيرة اتقلب على جنبي من اليمين الى الشمال .. ومن الشمال الى اليمين..



واجهة مسجد قصر الحمراء في غرناطة



وكانت ثورات من الهواجس تؤرقني بشدة .. وسرعان ما تركت السرير وقمت الى النافذة افتح مصراعيها لاستنشق عبير الحمراء .. وكان فندق المدينة الكبير بالقرب من قصر الحمراء الذي تركه العرب آية من آيات الفن والأبداع . ان الظلام يغمر القصر ويلف المدينة بطيلسانه . . فلا يكاد يلفحني الهواء القارس حتى اغلق النافذة وأعود الى سريري . . وبرودة طقس غرناطة مما تتحدث عنه الشعراء الاندلسيون وغير الاندلسيين بكثرة . . انهم يذكرون جبلها الشامخ الذي لا ينفك عنه الثلج شتاء وصيفا . . وقد اذكرني برد غرناطة تلك الليلة ـ اذكرني بابن صدرة الشاعر .. فقد دهمه البرد كما دهمني وكان ممن لا يترك فريضة من فرائض الصلاة .. ولكن شدة البرد قد اضطرته ان يترك الصلاة في غرناطة فقال ابياته الشهيرة التي توردها كتب الأدب وتنزل عليه اللعنة لتركه الصلاة واستباحته شرب الخمر .

احل لنا ترك الصلاة بارضهم — وشرب الحميا .. وهو شيء محرم
فرارا الى نار الجحيم لانها — ارق علينا من « شكسبير » وارحم

وشكسبير اسم جبل غرناطة ويطلق عليه المؤرخون « شكر وهل جبل نيفادا ومعنى نيفادا الثلج ويسمي العرب هذه الجبال بجبل الثلج أو« شكير » بصيغة التصغير .

ونعود الى الشاعر الذي اجاز لنفسه ترك الصلاة وشرب الخمر مع علمه بالوزر الذي يرتكبه لانه رأى نار الجحيم أرحم من برد جبل شكير فختم مقطوعته بقوله :

لئن كان ربي مدخلي في جهنم — ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

ولئن يضطر زائر غرناطة اليوم أن يحل لنفسه ترك الصلاة وشرب الحميا فراراً الى نار الجحيم التي هي أرحم من لفحات البرد التي ترسلها جبال نيفادا كوخز الأبر أو اشد فان وسائل التدفئة ميسرة كل التيسير ولاسيما في هذا الفندق الكبير ـ الحمراء ـ الذي نزلنا فيه .



وأعود الى ما كنت في صدده فاقول لقد دهمتني الهواجس في تلك الليلة وكنت أريد ان أقفز ، في هذا الليل البهيم ، الى باحة القصر ـ قصر الحمراء . . ولكن اني لي ذلك ؟

لقد عدت الى فراشي أنام نوماً هادئاً مريحاً . . ولكنني لا أكاد اغمض عيني حتى تعاودني الذكريات المؤلمة والهواجس المضنية فتستبد بي من جديد . .

أرقت تلك الليلة أي ارق . . كنت لمن ينام على فراش من شوك . . وقد وددت أن يكون معي أكثر من كتاب واحد عن غرناطة . . عن الحمراء . . عن جنة العريف . . عن أي شيء آخر . .

كانت نفسي في ظمأ لان تقرأ ، كل شيء . . ولكن لم يكن معي أي شيء . وهذا الذي نفر النوم من عيني وزاد في ثورة ارقي وهواجسي .

رأيتني على غير وعي مني ، اهمس في نفسي هـذه الهمسة المدوية وقلت مالي وللكتب وأنا بالقرب من قصر الحمراء اقرأ في سجوفه سطوراً ذهبية من ذلك السفر الخالد الذي تجلت في كل كلمة من كلماته ، وفي كل نفس من نفوسه ، وفي كل حجرة من حجراته عبقرية العرب في الخلق والأبداع .

اخذت استعرض ذياك التاريخ المجيد منذ فتح العرب الاندلس ، تلك البلاد العظيمة ، الى أن خرجوا منها .

منذ عهد طارق بن زياد وموسى بن نصير الى آخر ملوك بني الاحمر . . الى عبدالله الصغير .

أخذت استعرض تاريخ الاندلس الذي تأرجح خلال ثمانية قرون بين هبوط وصعود ، بين نصر وهزيمة ، بين السؤدد والضعة ، بين اشراق النور وديامنس الظلام . . . نعم ، أخذت وانا يقظان نائم استعرض ذياك الماضي المليء بالمسرات والحسرات ـ فترات المجد وعهود الأنهيار . . ساعات الصفو والهناء وسنوات التعس والشقاء ـ منذ عهد الولاة الذي ابتدأ بطارق بن زياد . . وانتهى

بيوسف بن عبدالرحمن الفهري .. الى العهد الأموي الذي افتتحه عبدالرحمن الاول صقر قريش ـ وانتهى بهشام بن محمد .

من صفحات الشروق الى صفحات الغروب ـ أريد تلك العهود التي ثارت فيها المنافسات والعصبيات ـ من ملوك الطوائف ، الى الدولة الزيرية ، الى الدولة الحمودية الى الدولة الهودية ، الى الدولة العامرية ، الى الدولة العبادية . .

دول ودويلات قد جرّت على العرب الكثير من الويلات والكارثات . .

من مملكة موطدّة الاركان . . مترامية الاطراف . . الى امارات هزيلة وممالك خاوية . .

أي والله .. كنت وانا مستلق في فراشي ، استعرض في ذهني صورة هذه المنافسات وتاريخ تلك الدويلات التي كانت تختصم وتتقاتل وتسفك الدم العربي الحار في أرض لا يزال أصحابها يتربصون الفرص لان يضربوا الضربة القاصمة التي مهد لها بهذا التنافس المريح على امارات هزيلة ..

ومن الدولة العبادية الى بني الأفطس .. الى الدولة الجهورية .. الى دولة ذي النون .. الى المرابطين .. الى الموحدين . . الى بني الاحمر الذين كانوا آخر ملوك ختمت بصفحتهم السوداء ـ استغفر الله أريد صفحة آخر ملوكهم ـ اجمل وأبرز عهد زاهر تركه العرب في الاندلس .

لم انم ليلتي تلك ـ كنت استعرض التاريخ صفحة صفحة ، عهدا اثر عهد وملكا اثر ملك ، وأميراً اثر أمير ..

كان أكثرهم يتنافسون على امجاد زائلة ..

كانوا يتقاتلون ويصطرعون ويثيرونها حربا شعواء في سبيل امارات صغيرة .

في كل مدينة دولة .. ولكل دولة أمير ووزراء .

وقد تكون مملكة الأمير قلعة اوكورة . وقد لا يزيد نفوس المدينة التي يحارب في سبيلها ـ على الخمسين الف نسمة

انتهى الملك العريض الضخم الى عشائر متنازعة وقبائل متنافسة

كان بعضهم يطلب المدد والعون من العدو الاسباني الذي كان لا يبخل

بعده على الاميرين العربيين المتحاربين . أي كان يضرب هذا بذاك ليخرّ أمامه منهوك القوى وليستطيع أن يضع يده على الامارتين بسهولة وبدون عناء

وهكذا فقد ظلت المملكة الاندلسية فترة غير قصيرة فريسة هذه المنافسات والمنازعات لعبت الأهواء والدسائس والضغائن والمطامع والحزبية القبلية وحتى احقاد النساء لعبت كل هذه المآثم دورها الخطير في تقويض ذلك البنيان العظيم .

★ ★ ★

لقد اضنتني هذه الهواجس في ذلك الليل الطويل . وكانت عقارب الساعة تشير الى الثالثة بعد منتصف الليل ولما انم . . وكلما اغفت عيناي اثر التفكير بذلك المسير نفرني هاجس جديد .. لقد أردت تلك الليلة أن أنسى هذه المآسي .. أن أعيش فترة في المفاخر والأجداد . فيما تركه العرب من أدب وفن وحضارة . ولكن قصة خروج العرب من الاندلس هي التي ارّقتني . كانت صور المناقشات تتلاحق في ذهني بصورة جدّ مريعة - صور بشعة من الانحدار الذي وصل اليه اولئك الذين شوهوا سمعة التاريخ العربي . . لقد وصل الانحدار الى أن يكيد الاخ لاخيه .. بل الى ما هو أشد من هذا . . أن يثور الابن على ابيه .

ولعل قصة ابي الحسن وابنه عبدالله آخر ملوك بني الاحمر هي ابشع القصص التي تروي عن رعونة تلك المنافسات .

اب يقاتل المدوليصون حمى المملكة فيثور الابن ويعلن انتفاضته على ابيه !

وقراء التاريخ الاندلسي يذكرون أن لابي الحسن زوجتين احداها بنت عمه واسمها عائشة . . والثانية اسبانية واسمها ازابيل أو الزهراء كما تسميها الرواية العربية . وكان أبو الحسن يميل اليها والى اطفالها . . فاثار هذا الميل غيرة عائشة وحسدها . . فما ان سافر زوجها على رأس جيش لصد القشتاليين حتى حرضت ابنها ابا عبدالله أن يثور على أبيه فانصاع لأرادتها ورشت قسماً من الحاشية وبعض رجالات القصر لينادوا بابنها الفتى ملكا عليهم . ولم يكد يسمع الأب بخطوط هذه المؤامرة حتى ترك ميدان القتال وعاد ليطفيء نيران هذه الفتنة .. وحين اطمأن عاد الى قتال القشتاليين .. وبينما هو يخوض أعنف معركة مع خصمه فرديناند إذ بالابن

الثائر وقد ركبته خيلاء الطموح يستولي على قلعة الحمراء وينادي بنفسه ملكا على غرناطة وكافة أطراف المملكة .. ويضطر الأب أن يترك مملكته . . وأن يترك خصمه وأن يلجأ الى مالقة ..

ولا استرسل في سرد نهاية هذه القصة المحزنة التي انتهت بطرد الابن ونفيه من عرش المملكة فكانت هذه الحادثة المريعة هي الفصل الأخير في هذه المأساة الدامية .

نعم ، كانت هذه القصة بالذات أكثر القصص التي سيطرت علي تلك الليلة من ليالي غرناطة فحرمتني النوم .

وقد ظللت اتقلب على فراشي حتى الرابعة صباحاً ففي تلك اللحظة كانت نواقيس غرناطة تقرع قرعا متواصلاً من مأذنة جامعها الكبير . وشعرت بالتعب يهدّني فاستسلمت لنوم متقطع ، وقد ظللت في غفوتي السادرة حتى التاسعة تماماً .

في هذه اللحظة كانت غرناطية رقيقة الصبا ، موردة الخدين ، دعجاء العينين تنقر الباب برفق فلا اكاد أصابحها وتصابحني حتى افهم من كلماتها الاسبانية المشوبة بافرنسية ذات لثغة مرقصة أن رفاق السفر في انتظاري .. فأفيق كالمذعور الذي يهدهده صوت ناعم يزيل عنه بعض أرقه وهواجسه وحاجته الى المزيد من التمطي والاسترخاء وبقية من نوم هنيء ..

وما اكاد آخذ حمامي وألبس ثيابي وأتناول فطوري حتى أكون مع الركب نسير الهوينا في أرض مغمورة بالثلوج لزيارة قصر الحمراء .

بنو الأحمر

قبل أن ندخل مع القارىء الكريم قصر الحمراء - ذلك القصر العجيب الذي لا يزال يرمز ، رغم تقادم السنين ، الى عبقرية العرب في الفن والبناء قبل أن ندخل أبهاء هذا القصر لا بد من كلمة عن الذين أشادوه ، عن ملوك بني الأحمر آخر ملوك الأندلس الذين دامت دولتهم مئتي وخمسين سنة في غرناطة وما اليها من المدن والقرى والدساكر بما فيها القلاع والحصون والثغور . . أي في الرقعة الواقعة بين جبال نيفادا وساحل البحر ، وهذا كل ما بقي في أيدي العرب بعد أن كانت نصف الجزيرة الاسبانية في حوزتهم وتحت سيطرتهم .

من هم بنو الاحمر ؟

هم قبيلة عربية من سلالة بني نصر الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة ، سيد الخزرج واحدا ركان الصحابة البارزين . جاؤوا الى الاندلس عقب الفتح الاسلامي ودخلوا في خدمة الدولة الاموية ، كقواد مغامرين لهم صولتهم وسلطتهم.. اذ كانت قيادة الجند هي أبرز الوظائف التي تقلبوا فيها .

وقد شهد أحفاد هذه الاسرة العربية العريقة والاسى يعصر قلوبهم انهيار هذا الملك العريض الذي بناه أجدادهم بقوة إيمانهم وحد سيوفهم ، فاستيقظت هذه الروح بقوة وعنف عند رئيس هذه القبيلة « محمد بن يوسف » الذي كان يراقب ،

وهو في حصنه المنيع ـ حصن أرجوته من أعمال قرطبة ـ تفاقم الفتن الداخلية من جهة وغزوات الاسبانيين للقواعد الحصينة وتغلبهم عليها من جهة أخرى ، وكيف أخذت المدن تتساقط الواحدة بعد الاخرى ، بيد الاعداء فلم يحتمل أثر هذا التصدع في البنيان الشامخ ورأى أن الجهاد أصبح فريضة مقدسة ، فما أن باح برأيه حتى التف حوله الكثير من الزعماء الذين يسندونه ويشايعونه في رأيه وكانت وثبته الاولى استيلاءه على « بياسة »و« وادي آش » و « جيان» و« شريش» و « مالقة » و « كثير غيرها من القواعد والحصون ...

كانت هذه الوثبة مدعاة لان ينضم تحت لوائه الكثير من فرسان العرب الذين نزحوا عن المدن التي وقعت تحت يد الاسبان . . واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من المشاة والفرسان ويوجهه الى غرناطة التي كانت تحت حكم ابن هود الذي ولى عليها عتبة المغيلي ، وهو من خصوم ابن الاحمر ، وكان حكمه جائراً ، ضاق السكان بعسفه وظلمه، فما أن علموا بقوة أبن الاحمر وجيشه الذي وجهه شطر غرناطة حتى قامت الثورة على المغيلي وقتلوه واعلنوا طاعتهم لابن الاحمر وبعثوا يستدعونه، وكان على أهبة دخولهـــا..فدخلها «في يوم من أواخر رمضان «٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨ م » في أصيل يوم نزوله ، وهو يرتدي ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبة، وأم الناس لصلاة المغرب ثم خرج من المسجد الى قصر باريس والشموع بين يديه ونزل فيه مع خاصته ، وبذا غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه ..

وتصف لنا كتب التاريخ خصائص هذا الرجل الذي كان يجمع الى روح المغامرة وصفات الرجولة الزهد والتقشف والبعد عن مظاهر المجد ، مع الحرص الشديد على صون التراث الاسلامي الذي وضع لبناته أفذاذ مغامرون .

ويشير ابن خلدون الذي عاش في غرناطة وعرف الكثير من خصائص ملوك بني الاحمر يشير اشارات واضحة الى سرعة نهوض هذا الحاكم القوي الذي اكتسب بمتانة خلقه ومقدرته نفوذاً عظيماً على بني قومه .. فحين أخذ سلطان الموحدين ينهار ، وأخذ الزعماء يسلمون حصونهم الى العدو لقب ابن الاحمر نفسه بالسلطان وسمي الغالب بالله.. وقد وجه كل اهتمامه لصيانة أطراف مملكته وأطراف

قاعدتها، فأقام في غرناطة القلعة المشهورة المسماة « قصر الحمراء » والتي عمل من جاء بعده من ذريته على توسيعها وتجميلها .

ونهج هذا الأمير نهج السلف الصالح في ادارة المملكة وفي سياسة الدولة .. كان يباشر الأمور بنفسه ويدقق في جميع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح .

وكان يعقد مجالس عامة يومين في الاسبوع يستمع فيها الى الظلامات وذوي الحاجات ، يستقبل الوفود ويستمع الى قصائد الشعراء .. وكان يجري في تصريف شؤون المملكة على قاعدة الشورى فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ، ومن اليهم من ذوي الرأي للاسترشاد برأيهم ونصحهم .

ولن نسترسل في سرد قصة هذا الرجل الذي حمل عبء أعظم تراث اسلامي في بلاد النصرانية . كانت مملكته بداية النهاية نهاية ذلك الملك الضخم الذي تمزق وتناثرت اشلاؤه بحكم الجزازات الفردية والعصبيات القبلية والتطاحن الخسيس على الامارات والرئاسات .

نعم ، لن نسترسل في سرد قصة هذا الرجل فحسبنا منها ما المعنا اليه .. ولكن لا بد من لمحة عن مدة حكمه ومن جاء بعده من ملوك بني الأحمر وهم أولاده وأحفاده الذين كان على يدهم نهاية المأساة ..

فمذ استوى محمد بن يوسف على سدة الملك أخذ يعمل على صون مملكته سواء بالدفاع عنها بقوة السلاح وبالجيش الذي أعده لاخماد الفتن الداخلية ورد هجمات أعداء المملكة الطبيعيين أم بهذه المعاهدات التي اضطر الى عقدها مع خصومه ..

ففي خلال حكمه الذي دام قرابة الأربعين عاما لم تهدأ له ثائرة .. كان في حرب دائم مع الاسبانيين .. ورأى الشعب الأندلسي فيه الزعيم المنقذ فألتفوا حوله وانضموا تحت لوائه ، ورأى الاسبانيون ، بعد أن اطاحوا بالكثير من الامراء واستولوا على الكثير من الممالك والحصون ، أنه لم يبق أمامهم غير هذا الزعيم الذي أخذ نفوذه يتزايد بالرغم من انضواء الكثير من الامراء تحت رايتهم..

وقد شعر بالمهمة الملقاة على عاتقه . ورأى أن الانطواء والانكماش في حدود هذه المملكة ليس من شيم الرجال واطماع الاسبانيين تحيط به من كل طرف ، فبدأ هو القتال .. وكانت قلعة مرطوش هي أولى المواقع التي سدد ضربته نحوها .. وهي قلعة متينة ، فضرب حولها الحصار ، وكان ذلك سنة ٦٣٦ هـ .. أي بعد بضع سنوات من حكمه ، وبعد حروب عنيفة اضطر ابن الأحمر أن يرفع عنها الحصار وأن يشتبك معهم في معركة دامية أحرز فيها النصر ، وقد أثار هذا النصر ثائرة الاسبانيين وحسبوا أكثر حساب لقوة ابن الأحمر . . وقرروا وجوب تحطيمه قبل أن يزداد قـــوة .. فأعد فرديناند الثالث جيشاً كبيراً تحت قيادة ولده الفونسو وعزم الا يرجع الا بعد أن يحطم جيش ابن الأحمر..ودامت الحرب سنوات كان النصر فيها للاسبانيين الذين استولوا على حصن أرجونه وعدة حصون وأماكن من مملكة غرناطة . . ثم حوصرت غرناطة نفسها عام ٦٤٢ هـ ، ولكن جيش ابن الأحمر قد استمات في الدفاع عن عاصمة المملكة واستطاع ، والأمير على رأس الجيش ، أن يرد الاسبانيين عن اسوارها بخسائر فادحة ..

فارتد الجيش الاسباني الى جيان وحاصرها حتى كادت تسقط في أيديهم.. فلما رأى ابن الأحمر تفوق أعدائه الذين حشدوا له جيشاً ضخماً من مختلف الممالك الأوربية ، وأن المقاومة لون من الانتحار ، آثر الهدنة ومصانعة ملك قشتاله .. وقد أعقب هذه الهدنة عقد معاهدة صلح لمدة عشرين عاما .. وهي معاهدة جائرة من بنودها أن تصبح غرناطة شبه مقاطعة تابعة للعرش الاسباني وتسليم بعض الحصون ودفع جزية سنوية قدرت بمئة وخمسين ألف قطعة ذهبية ، وقد اضطر الى عقد هذا الصلح بعد أن تألبت أوروبا كلها تقريبا ضد هذه المملكة الصغيرة التي صمدت للأحداث بقوة وجبروت ..

وقد قضت بنود هذه المعاهدة أن يدعم ابن الأحمر الاسبانيين في قتالهم مع ملك اشبيلية ..

فقدم له الجنود المسلمين ليقاتلوا اخوانهم المسلمين تمهيداً لاستيلاء الجيش الاسباني على مملكة اشبيلية ». وعلى قادس .

وأي خذي هذا الذي أقدم عليه هذا الملك المقدام ، لا شك أنه أقدم عليه والدموع تترقرق بين عينيه ؛ وقلبه يتفطر أسى وألما ، بل ينزف دما ..

وفي رواية أن ابن الأحمر ، في دعمه الجيش الاسباني ضد أبناء جلدته ملوك اشبيليا ـ طمأن نزعة الانتقام منهم .

ولسنا من هذا الرأي ، فأن صحت الرواية تكون هذه السيئة قد محت كل حسناته . بل هي جريمة نكراء أكثر منها سيئة تذهب الحسنات .. والتاريخ لن يغفر له هذا الأثم المنكر .

بعد أن هدأت ثائرة الحروب وعاد الى غرناطة أخذ يستعرض الماضي وما قام به الأجداد وما انتهى اليه الاحفاد .. فبكى .. ورأى أن الانكماش في ظلال القصر وعدم بذل الدم هو لون من الموت.. ولا سيما وقدلمس بيده أطماع أعدائه الطبيعين..لقد كان منهم على حذر .. وأخذ يتحين الفرص.. ورأى أن يستنجد ببني مرين ـ ملوك افريقية ـ المغرب الاقصى ـ وان يجمع ويلم جيشه من جديد ، فلما رأى أن جيشه قد استعاد قوته اعتزم استئناف القتال ، وقد استطاع بجيشه ، وبهذه القوات من المتطوعين والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر أن يهزم العدو ، وأن يرده عن حدود مملكته ، وليس هذا فقط بل قد استولى على بعض المواقع والحصون .. فكان لهذا الانتصار أثره الصاعق على رؤوس الاسبانيين الذين حشدوا أيضاً جيشاً ضخماً لردهذه الهجمات وعاود ابن الأحمر استنجاده بأمراء المغرب ورجالات القبائل لاغاثة الاندلس قبل فوات الوقت . ولكن الآمداد لم يصل .. وبعد عدة معارك خاضها وحده رأى أن من المصلحة ، وخوفاً من أن تضيع المملكة . أن يهادن ملك قشتاله من جديد بعد أن نزل له عن بعض الحصون .

* * *

وهكذا ، فقد مرت حياة مؤسس هذه المملكة الصغيرة في صراع دائم.. وكانت نفسه تجيش بكبريات الآمال .. ولكن ما عساه أن يفعل وقد تألبت عليه اوروبا بروحها الدينية العاصفة .

فما كان منه ، بعد أن دخل أكثر من معركة واحدة ، الا أن ينزوي في مملكته الصغيرة ، الضيقة الحدود والاطراف ، يعني بشؤونها ويشاهد عن كثب

بعض الانتفاضات التي تثور من هنا وهنـاك .. ولم يمتد به الزمن ، فقد توفي سنة ٦٧١ هـ على أثر سقطة من جواده ، وكان قد قارب الثمانين .. وكأنه قد وضـع الأسس الوطيدة لازدهار هذه المملكة التي ازدهرت وظلت مدة مئتي وخمسين سنة تقاوم الاعاصير .

هذا ، وقد تعاقب بعده على عرش هذه المملكة قرابة العشرين ملكاً وأميراً، ولكل واحد قصته . وتتباين صور هذه القصص .. بعضهـا قصص مزرية . . وبعضها قصص ذات مفاخر وأمجاد ولن نسرد جميع هذه القصص .. بل نلمع الى ذكر أبرز من مثل دوره على مسرح هذه المملكة التي كان انهيارها مأساة لا تزال صورها تهز النفوس وتثير القلوب لوعة وتستقطر من المآقي الدم بدل الدمع .

بعد محمد بن يوسف خلفه على العرش ابنه أبو عبدالله محمـــد الذي تابع سيرة أبيه في الجهـاد وكان أبو عبدالله عطر السيرة ، محبوبا ، وكان الى تبحره في الفقه والعلوم العربية يعطف على العلماء ويزدان مجلسه بمجادلاتهـــم ، وكانت الغيوم الكثيفة التي تحيط بالمملكة هي التي تشغل باله ، وكان من علماء الشرع ، فقيهاً ، محباً للعلوم ، ففي عهده ، غزا ملك قشتاله مملكة غرناطـة فصمد له الملك العالم ، وكان قد استعان بملك بني مرين واستطاع أن يهزمهم في معركة قتل فيها قائد الجيش القشتالي الذي كان يسميه العرب « دون نونو » .. وبعد احدى عشرة سنة نشبت الحرب مجدداً بين ملك قشتاله وملك غرناطة ، دامت مدة طويلة انتصر فيها الملك الشاب انتصاراً لا يقل عن انتصاره الاول ، وقد دام حكم ابن عبدالله محمد ثلاثين سنة كان مثال السلطان العادل الذي يعنى برفاه مملكته وسيادتها أكثر من اهتمامه بذاته وأموره الخاصة ،

بعد وفاته ، كان ذلك عام ١٣٠٢ م خلفه ابنه ، ولقب بنفس الاسم وسار سيرة أبيه وجده . ولم يطل حكمه فقد ثار عليه ، بعد سبـع سنوات ، أخوه الناصر وخلعه عن العرش .. وتربع على دست الحكم ولم تكن له نفسية أخيه في خوض المعارك . بل كانت أبهة الملك هي التي استهوته . ولم يهنأ بهـــذه الابهة ، فما كاد يرى الاسبانيون هذا التناحر على كرسي المملكة بين الاخ وأخيه

حتى رأوها فرصة ملائمة لاستئناف القتال من جديد . تعاقد ملك الاراغون مع ملك قشتاله للقيام بهجوم صاعق ، فما كان من الناصر الا أن خضع لهما وقبل بدفع جزية سنوية .. ثم اضطر أن ينزل عن العرش لعدم استطاعته القيام بأعباء الملك ــ نزل عنه لا لأخيه بل لأحد أحفاد اسماعيل أخي ابن الأحمر مؤسس تلك الأسرة .. وكان اسمه اسماعيل أيضاً .

وشعر اسماعيل هذا بالمهمة الملقاة على عاتقه لحفظ التراث وصون المملكة من هجمات القشتاليين الذين جمعوا صفوفهم وأرادوا اخضاع مملكة غرناطة الى نفوذهم نهائياً . وكان الجيش القشتالي تحت قيادة ابن الملك المسمى « بذرو » وكان الى جانبه خمسة وعشرون أميراً من أمراء أسبانيا وبعض ممالك أوروبا ، حتى انكلترا قد أمدت الجيش القشتالي بقوة كبيرة من جنودها على رأسهم أمير انكليزي ــ ومع هذا الحشد العظيم ، استطاع هذا الامير الشاب أن يكسب المعركة وأن يصون حمى المملكة وأن تكون ضحـايا الجيش الاسباني جد كبيرة .. فقد سقط جميع الامراء مجندلين في ساحة الوغي ومن بينهم ــ بذرو ابن ملك قشتاله وقائد الحملة .

أن مدة هذا الحفيد لم تطل مع الاسف ، فقد اغتالته يد أثيمة لا مجال لسرد عواملها هنا ، وهي نتيجة هذه المطامع الخسيسة التي كانت تثور في نفوس بعض الطامعين .. وقد اعتلى العرش ابنه أبو عبدالله محمد الذى استطاع أن يلعب دوراً خطيراً في بسط نفـوذ المملكة ، وأن يكون امتداداً لما قام به أبوه ، واستطاع أن يضع يده على جبل طارق وأن يسترده من الاسبانيين بعد أن دخل في حوزتهم ، ولكن سلطة هذا الشاب لم تدم فبينما كان عائداً من أحد الحصون في رحلة استكشافية على مراكز الجنود ، انقض عليه بعض المتآمرين المختبئين وراء أحد الصخور وفتكوا به . فذهب كما ذهب أبوه ، ضحية الغدر ، وكانا قد كسبا أعظم المعارك الحربية بعد أن أنزلا بالاسبانيين خسائر فادحة .

بعد مصرع السلطان محمد خلفه أخوه أبو الحجاج يوسف ، وكان كما تقول

الرواية العربية والمصادر الاسبانية ، من أذكى وأشهر ملوك بني ناصر . وكان عهده عهد أمن ورخاء وطمأنينة .

عرف ، كأسلافه ، بحبه للعلم ، وتشجيعه لرجالات الفكر ، وقد اعتزم أن ينهج نهج اسلافه ولكن الاقدار لم تمهله فبينا كان يؤدي فريضة الصلاة في مسجد القصر ، إذ بمجنون يطعنه بخنجر طعنة نجلاء يخر على أثرها صريعاً .

وهكذا ، وفي فترة قصيرة جداً خسرت أسرة بني الاحمر ثلاثة من أنبل الشباب كانوا يعملون بحماس لصون المملكة من الفتن الداخلية والصمود للهجمات الخارجية .

وجاء الى سدة الملك بعد مصرع أبي الحجاج يوسف ابنه محمد الغني بالله .. وهو كأبيه محب للعلم ، مشجع للعلماء ، ذو ثقافة واسعة ، وقد استوزر حين تسلم مهام السلطنة ، الاديب المؤرخ لسان الدين بن الخطيب . وأحب بعد أن استلم زمام الحكم أن يتفقد شؤون الرعية ، فلم يكد يترك غرناطة العاصمة ويقوم بجولة في الاطراف ، يزور الحدود ويتفقد القلاع والحصون، ويستمع الى أفراد الرعية ويتحسس مشاعرهم . ومدى رغبتهم في القتال والصمود للعدو حتى يفاجأ بنبأ اقض مضجعه — أعلن أخوه اسماعيل — نفسه ملكاً ، فكان لهذا الخبر وقع الصاعقة في نفس الغني بالله الذي آلمه أن يقع هذا الضرر من أخيه في ظروف عصيبة يتهيأ فيها العدو للضربة القاضية ..وقد ترك الاندلس الى أفريقية واستوطن مدينة فاس يرقب الاحوال عن كثب .

الا أن حكم أخيه اسماعيل لم تطل مدته . . فقد نشبت في هذه الفترة فتنة داخلية تزعمها أبو سعيد الملقب بأبي عبدالله محمد الذي هجم على القصر وقتل اسماعيل . وخيل الى هذا الرجل أيضاً أن حكمه سيطول ، ولكن القشتاليين كانوا له بالمرصاد ، فلم يتركوه بلذة الحكم ففتكوا به واستولوا على ثروته .

وإذ خلت مملكة غرناطة من رجل من بني الاحمر يسوس أمرها ويدافع عن كيانها ، جاءت الوفود الى الغني بالله تدعوه للعودة الى عرينه ، والى المملكة التي أسسها أجداده ، فعاد الى غرناطة ونفسه مليئة بالآمال العظام وقد استقبله

الشعب الغرناطي أعظم استقبال .. وأخذ يصرف الامور بحكمة ودراية ، جمع حوله العلماء والمفكرين وأصحاب النفوذ .

وتميزت فترة حكمه بالهدوء والسكينة ، وبالصلاة الطيبة مع القشتاليين. وكان لذلك أثره ، فازدهرت التجارة والصناعة واستبحر العمران . وكانت أيامه مليئة بالرغد والطمأنينة والابتسام .

وفي سنة ١٣٩١ م توفي الغني بالله فحزن الشعب على وفاته حزناً عظيماً وخلفه ابنه أبو عبد الله يوسف الذي حرص أن يوثق علاقته مع القشتاليين كأبيه ، ولم يكن الشعب راضياً عن هذه العلائق بل كان شبه ثورة ، ويرى في هذه العلائق التي أرادها الاسبانيون صورة من التخدير ليضربوا الضربة القاضية . وثارت الحرب من جديد مع القشتاليين ، أثارها الشعب على البيت المالك ، فماذا كانت نتيجة هذه الحرب ؟ كانت النتيجة الغلب والتفوق للاسبانيين ، مما اضطر الملك أن يعقد معاهدة مع الملك الاسباني هنري الثالث بشروط اعتبرها شريفة . « وإذ ترك المملكة بعد وفاته لابنه الاكبر المسمى يوسف أيضاً - أراد أن يقوم بصون هذه المملكة .. وأن يسير في هذا المضمار الا أن الاصغر - واسمه محمود - قد ثار على أخيه وسجنه في قلعة « ساروبرينا » . . ومرت عشر سنوات نشبت خلالها حرب بين العرب والقشتاليين . . وبموت محمود هذا سنة ١٤٠٨ م أخرج سيدي يوسف من السجن وأعلن ملكاً على البلاد ..

ومرت أيامه مع القشتاليين في صراع دام ، من هدنة الى حرب ، ثم الى هدنة جديدة انتهت بصلح طال أمده ، وقد كانت أيامه من أزهر الايام للعرب والاسبانيين معاً ..

وكانت مملكة قشتاله تحت حكم الطفل ابن هنري الثالث .. وكانت أمه هي الوصية عليه . وكانت صلاتها مع الملك العربي على غاية من المودة والصفاء . . كانا يتراسلان ويتبادلان أثمن الهدايا وتحتفظ دار المخطوطات في مدريد ببعض هذه الرسائل بالعربية والاسبانية .. وكثيراً ما كانت الخلافات التي تنشب بين الامراء

القشتاليين تحل وتسوى في بلاط الملك يوسف الذي أحبـــه الاسبانيون والعرب معا . . حـــتى الخلافات التي كانت تقـع بين الأمراء القشتاليين ، وتمس الشرف والكرامة كان يتدخل هذا الملك العربي لحلها ، فتنال الرضى . . وهدأت الحرب مدة طويلة مما حمله ان يتفرغ الى عمران غرناطة واصلاح ما تخرب . .

وقد دامت سلطة الملك يوسف الثالث خمسة عشر عاماً مرت أيامـه على أحسن ما يرام .. ولكن النذر كانت تعصف من بعيد ، فبموته حزن الشعب حزناً كبيراً ، وخلفه ابنه محمد الملقب بالأيسر . وكان ذا خلق وعنفوان لا يحمل من شمائل أبيه أية ظاهرة . . فما كاد يحكم حتى أخذ يصدر بعض الأنظمة الصارمة التي تمس شعور الشعب فكرهه وثار عليه .. ثم عاد الى غرناطة..فلم يرحب الشعب بعودته ،وما كاد يتربع على دست الحكم المرة الثانية حتى طرده شر طردة.. وسرعان ما اهتم القشتاليون الأمر ونصبوا أحد اتباعهم المسمى يوسف ، وهو من أشراف غرناطة ، وكان ذلك في عهد جون الثاني ملك قشتاله .. ولكن لما رأى الغرناطيون أن اليد الأجنبية هي الـتي رفعت هذا الرجل الى سدة الملك وهو ليس من أسرة بني الأحمر ثار حنينها الى الملك الذي طردوه المرة بعد المرة . . فعاد لمملكة آبائه من جديد . . ودخل في حرب طاحنة مـــع القشتاليين واستطاع أن يردهم عن أسوار غرناطة وأن تدور المعارك في وادي آش وفي أطرافها .. وفي سنة ١٤٤٤ أقصي نهائياً عن الحكم من قبل ابن أخيه ابن الأحنف ، الذي أولاه الشعب ثقته .. وكان الصراع قوياً بين الشعب وبعض الوصوليين الذين كانوا يرتمون في أحضان الأجنبي للوصول الى كرسي الرئاسة . . وقد قام بعض المتزعمين الذين يسمون أنفسهم اشرافاً ، بتأليف وفد منهم قصدالى ملك قشتاله جون الثاني وبايعوا « أسدا » الملقب بابن اسماعيل ابن عم ابن الأحنف وكان ملتجئاً عند جون الثاني ..

دخل هذا الملك الذي اعتبره الشعب صنيعة الأجنبي ، دخل غرناطة مـع غير واحد من الأمراء الموتورين على رأس قوة من القشتاليين ـ فاستقبلهم الشعب

بثورة عنيفة من الغضب .. وأخذ ابن اسماعيل هذا ، يقوي صلته "الاسبانيـين ، يرسل اليهم الهدايا والسفراء لتجديد معاهدة الصلح .. فكان جوابهم المراوغة، أمهلوه فترة - ثم ثاروا عليه .. وغزا القشتاليون غرناطة — الحصن الوحيدالذي بقي بأيدي العرب — غزوه من جديـد ، ووقف الجيش الغرناطي وأهاليغرناطة يردّون هذه الغزوة الكبرى .. وقـــد دامت الحرب سبع سنوات كاملة كانت غرناطة خلالهـــا فريسة للنيران والتهديم ،'فأحرقت بيوت المسلمين . . وخربت المزارع وهدمت القصور ، وأخيراً اضطر هذا الملك الذي استولى على المملكة بيد الأجنبي ، وضد ارادة الشعب - اضطر أن يعلن عجزه وأن يطلب الصلـح بأي ثمن . فاعترف بسلطان هنري الرابع ، وتعهد بدفـع جزية سنوية قدرها اثنـا عشر ألف دينار .. وأبرمت المعـاهدة شخصياً فاجتمـع الملكان على مقربة من غرناطة .. ودام الصلح حتى وفاة ابن اسماعيل سنة ١٤٦٦ .

• • •

وبوفاته خلفه ابنه الأكبر أبو الحسن ، وهنا تبـدأ سلسلة جديدة من المآسي على مسرح المملكة ليست فصولها هذه المشاهد التي تقـع في ساحات الحرب بين ملك وملك، وجيش وجيش ، بل من كل هذا ، ومما في نفوس الأمراء من مطامع اثارتها غيرة امراة .

فقد كان لأبي الحسن زوجتان ، احداها ابنة عمه واسمها عائشة أنجبت له ولداً اسمه أبو عبدالله محمد ، والثانية اسبانية اسمها ايزابيلا ، وقد أسماها « الزهرة » وكان أبو الحسن يحبهـا حباً جماً ، أنجبت له أكثر من ولد واحد ، فكانت هي وأولادها موضع حبه ورعايته مما أحقد عليه قلب زوجته عائشة وابنها ..

وهذا الحقد شيءطبيعي ،هو بعض غيرة المرأة الجموح ، ولكن هل وقف الحقد بينها وبين ضرتها - بين عائشة وايزابيلا .. لا ..فقد تعداه الى تدبيرمؤامرة جد خطيرة ضد الزوجة . . أي ضد الملك ابي الحسن . . فقد قادت الغيرة الرعناء قلب عائشة الى أن تدبر مؤامرة لتطيح بزوجها وتنصب ابنها على سدة الملك — وتفيض كتب التاريخ بسرد قصة هذه المؤامرة - أو ثورة الابن على الأب ، مما مهد لضياع البقعة الباقية من ملك الاسلام بالأندلس ..

ومن المفارقات العجيبة التي وقعت في تلك الفترة والتي عجلت في انهيار الدولة الأندلسية زواج فرديناند ، أمير قشتالة ، من ايزابلا ملكة أرغونة سنة ١٤٦٦ م ـ أي أن العامل امرأة أيضاً .. فقد عملت عائشة على تصديع أركان مملكة غرناطة بثورة الابن على أبيه ، وعملت ايزابيلا بزواجها من فرديناند على تقوية خطوط الدفاع بتوحيد صفوف المملكتين ..

وهكذا ، فأن عدة عوامل كانت تتلاحق لتمهيد سبل الاضمحلال . . كان أبو الحسن يواجه الأحداث الداخلية بقلب دام ، وكان على شيء كثير من الاعتزاز ، ولكن ما سيكون موقفه وقد أصبح وحده في الساحة ، بعد أن تخلى عنه حتى أقرب الناس اليه .. لقد اعتزم أن يغامر . . وهي مغامرة جد خطيرة .. ولكن هل يركن الى الخور والضعف والعدو على الأبواب .. فقد ترك له أبوه تركة مثقلة بالأهوال .. وكان بدء التحرش من الاسبانيين،وقد أرسل فرديناند رسله الى غرناطة يطلب الجزية .. وامتنع عن الدفع . ولم يلجأ الى سياسة المداورة والاعتذار .. بل أجاب الرسل بكلمات نزلت على رؤوسهم كالصاعقة قال لهم بكثير من الاعتزاز :

قولوا لفرديناند ، أن الملوك الذين قبلوا دفع الجزية قد ماتوا ، أما أنا ، فجعلت من « دار الضرب » مصانع للسيوف وأسنة الرماح »

لم يكن أبو الحسن هازلا عندما ألقى هذه الكلمة على مسامع الرسل . . بل كان جاداً كل الجد .

فسرعان ما قاد جنده الى الزهراء واحتل المدينة بغتة .. وقد اثار انتصاره كوامن حقد الاسبانيين أجمع وعلى رأسهم ايزابيلا وفرديناند اللذين اعدا جيشاً كبيراً لانقاذ الشرف الاسباني . . وكانت وجهتهم مدينة « الحامه » وهي مدينة حصينة قريبة من غرناطة وعلى بعد / ٥٠ / ميلا وتكاد تكون مفتاحها الطبيعي . فاستولوا عليها وكانت أولى أعمالهم حرقها بعد أن نهبوا كل ما فيها وقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ، فكانت مجزرة رهيبة أثارت الرعب في قلوب الغرناطيين الذين اعتبروا دفاع أبي الحسن هو الذي أثار الاسبانيين لهذا الهجوم الغادر .

وكان لموقف الغرناطيين من مليكهم وتحميله وزر ما وقع على أهالي الحامه ما جعله يعد العدة لاستردادها ، وقد هاجمها ، مرتين ، وكاد يفلح في المرة الثانية لولا ثورة ابنه أبي عبدالله التي أشرنا اليها .. فقد رأت عائشة أن الفرصة مواتيـة لأن يتسلم ابنها زمام الملك ، فاحتل الحمراء ونادى بنفسه سلطاناً على البلاد .. وانهارت آمال أبي الحسن - الرجل الشجاع الذي تآمرت الدنيا عليه فلم يستطع أن يواجه هذه الأحداث فلجأ الى امارة مالقـه حيث كانت تحت سيطرة أخيه محمد المعروف بالزاجل .. وكان التجاؤه الى امارة أخيـــه نذير شؤم على مالقه أيضاً .. فقد حسب فرديناند أكبر حساب لانضمامه الى أخيه ، وخشي أن يثيرها حربا جديدة عليه فما كان منه إلا أن بعث بجيش كبـير الى مالقه فأحرقها وقطع أشجار زيتونها ودوالي كرومها ودمر قراها وذبح حتى أطفالها وشيوخها. وصمد له - الزاجل مع أخيه أبي الحسن واستطاعا أن يهزما جيش فرديناند وايزابيلا وأن يكبداه خسارة جسيمة .

ثارت الحمية في نفس أبي عبدالله ملك غرناطة الجديد حين رأى عمه ينازل الاسبانيين . فعمد الى مهاجمة الاسبانيين ولكن أنى له أن يقوم بالدور الذي لعبه أبوه ؟ فقد وقـع أسيراً بين أيديهم ، ورأى أبو الحسن أن الفرصة مؤاتية ، بعد أن أسر ابنه ، ليتخلى لأخيه الزاجل عن ملك غرناطة .

• • •

بعد أن وقع أبو عبدالله أسيرا بيـــد الاسبانيين أرادوا استغلاله في مطامعهم ، فلم يأخذوه بالشدة ، ولم ينفوه الى جـزيرة نائية بل أرادوا أن يكون اداتهم الطيعة في محاربة عمه الزاجل فعادوا به الى غرناطة ومدوه بالمـال فكانت شهوة الحكم ووفرة المـال عاملين في الاندفاع لقتال عمه ، وقد اقتتلا .. وكان يدعمه من الوراء جيش اسباني من قشتاله . وأحس عمـــه بالخطر فدعاه الى الانضمام تحت لوائه وعدم الركون الى الأعداء الطبيعيين . ثم كلفه أن يحكما المملكة معا ، وان يكونا يداً واحدة ضد فرديناند وايزابيلا فلم يأخذ بنصيحة عمه ، فمهد للاسبانيين بهذه الرعونة ، وهذا الصلف الكاذب ، أن يستولوا على « رنده » وعلى

حصون كثيرة حولها قريبة من مالقة ، ثم على مالقة نفسها . . فكان استيلاء الاسبانيين عليها بمعونة أبي عبدالله الذي سد المسالك على عمه الذي حاول استردادها فأخفق . . فاعتبرت جريمته الشنعاء وخيانته العظمى نصراً مبيناً ، فتبادل مع فرديناند وايزابلا التهنئة بانتصار جيوشها على عمه الزاجل واستيلائها على عاصمة امارته .

. . .

هنا . . في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ العرب في الأندلس نلتمس الانهيار بصوره المريعة . . فقد اضطرب الناس لهذا المصير المحزن الد لهم وعرفوا أن كوارث ضارخة ستنزل بهم . .

وبالفعل فلم يكد فرديناند وايزابلا يشعران بسيطرتهما على الموقف من جميع أطرافه ، وبهذا التصدع الذي شمل وحدة العرب حتى أخذا يفرضان سيطرتهما ويمليان ارادتها ، كان أول بادرة قاما بها أن نقضا العهد الذي أبرماه على أنفسهما .. وهو أن يؤمنا الناس - بعد أن يتم التسليم — على دينهم وأموالهم وأولادهم . . والسياسة لا تعرف العهود والمواثيق . . أنها كذب وأخاديع . . لقد فرض فرديناند على العرب المسلمين العبودية أو الجلاء . . فاختاروا الجلاء .

. . .

وهكذا . . فقد انهار آخر حصن في الدفاع الاسلامي بانهيار مملكة الزاجل الذي هاجر الى أفريقية بعد أن تهدمت كل آماله وأصبحت مملكته بيد أعدائه نتيجة لانضمام العدو وخنوعه لارادتهم وسيطرتهم .

لم يبق من مملكة الأندلس المترامية الأطراف سوى غرناطة وبضعة مدن مجاورة . . وقد ظن أبو عبدالله ، أنه ، وقد عاد الى عرينه في قصر الحمراء . أن ملكه قد استتب ، وأن حلفاءه سيعترفون له بهذا الجميل . .

وفاته أنه كان اداة طيعة لتحقيق مآربهم . . فلم يكد ينعم بالملك هنيهة . . حتى تنكروا له وقلبوا له ظهر المجن ، ولا سيما بعد أن بارح الزاجل الأندلس ، واطمئنوا الى أنه لن تقوم في وجههم أي انتفاضة أو تمرد في هذه الفترة . . طلبوا

الى صديقهم أن يسلمهم غرناطـــة .. فأفاق من غيبوبته .. وتحقق أنـــه كان في حلم . كيف ؟ لقد ناصب أباه العداء في سبيل العرش .. ثم تحالف مع أعدائه الطبيعيين ضد عمه ؟ ثم ماذا ؟ .. لقـد كان من الغباوة بمكان حين جهل هـــذه الحقائق البدائية .. وهكذا ، فأن تمسك هذا الملك الضعيف بأبهة الحكم هو الذي عجل بانهيار هذه المملكة ..

لقد ثار الغرناطيون وأبوا التسليم ، جمعوا جموعهم للدفاع .. وكان على رأسهم فارس عربي شجاع اسمه موسى ابن ابي الغزان ، قرر أن يدافع عن المملكة مع اخوانه الثائرين .. حتى النفس الاخير ..

ولكن ما عساهم يفعلون . . أنهم قلة . . وقد سادهم الخوف والهلـــع والاضطراب .. ومـع ذلك فقـد تولى هذا القائد الشجـاع قيادة الجيش فأبى الاستسلام واشتبك في صراع دام مع جيش فرديناند الذي استطاع أن يدمر بعض حصون غرناطة ، وأن يسيء ويقتل من اقيه من المسلمين . . وبالرغم من ذلك فقد صمد الثوار وردّوا الاسبانيين الى ما وراء حدود الامارة واستولوا على بعض الحصون .

ولكن فرديناند عاد يواجه حليفه وصديقه أبي عبدالله بجيش ضخم « هجم على سهول غرناطة في أربعين ألف راجل وعشرة آلاف خيال وشرع من جديد بعيث في البلاد بالنار والسيف ، فأتلف المحـاصيل الزراعيـة والأشجار المثمرة وأحرق المنازل وذبح السكان الآمنين ، وشدد الحصار على آخر معقل من معاقل المملكة في اسبانيا ، فاعتصم أهل « فيغا » بالعاصمة وصمدوا للعدو عشر سنوات وناضلوه عن كل شبر من أرضهم ، وكانوا يواجهونه بإستبسال عظيم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ..

غير أنه لم يبق لهم الآن سوى العاصمة الـتي تحصنوا داخل أسوارها في يأس محض . . وقاوموا العدو ردحا من الزمن ، ونظرا لسهولة المواصلات بـــين العاصمة والبشرات فكانت ترد المؤونة الى المحصورين من منطقة سيرا نيفـادة ، وفي تلك الأثناء أخذ موسى يناوش الأعداء ويقتل منهم يومياً عدداً من أحسن

جنودهم مما أثار سخط فرديناند الذي أمر بتشديد الحصار على العاصمة فضاق أهلها ذرعا بذلك .. ولم يكد يحل شهر صفر حتى عمت المجاعة وحاول الأهالي للمرة الأخيرة الذود عن حريتهم ، غير أن الحامية كان قد أنهكها الجوع ، فاستقر رأيهم على التسليم بعد أن فتكت المجاعة بالسكان فتكاً ذريعاً فعلتا فيهم ما لم تعمله القوة المغيرة طوال هذه السنين .. وفي الحال أرسلوا وفداً الى معسكر قشتاله لوضع شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة تم الاتفاق على شروط ليست في جانب المسلمين ، ولم يعترض على هذا الاذعان والتسليم غير القائد الشجاع موسى الذي حذرهم من الاعتماد على عهود القشتاليين الكاذبة .. وحرضهم على أن يهبّوا دفعة واحدة لفك الحصار ، وقد خاطبهم بقوله « أن الموت أعذب من الذل والأسار .. وأن من المحال أن يفي القشتاليون بوعودهم لأنهم متهيئون للبطش بالمسلمين .. ثم قال: «أن الموت في ساحة الوغى أعذب مما أعدته لنا الأقدار من اهانة وتحقير ، ومن اذلال ونهب وتدنيس للجوامع وانتهاك لشرف النساء» ثم ختم كلامه قائلاً «سيكون مصيرنا الاضطهاد والظلم والاستبداد لأن الأعداء آلوا على أنفسهم ان يستأصلوا شأفتنا .. ولما رأى موسى أن كلماته لم تستنهض همم المحاصرين الذين جاؤوا ليسلموا المدينة نظر اليهم نظرة احتقار وامتطى صهوة جواده ثم خرج من باب المدينة لا يلوى على شيء .. ويقال أنه لاقى في طريقه جماعة من الفرسان المسيحيين ، وكاد يتغلب عليهم لولا أنه سقط عن ظهر جواده ..

ولكنه مع ذلك أبى أن يستعطفهم ، فظل يمن فيهم وهو جاث على ركبتيه حتى وهنت قواه فألقى بنفسه في النهر وابتلعته الأمواج على الفور .

وكان المسلمون قد بعثوا بالرسل يستنجدون سلطان مصر والروم .. غير أن مدة الانذار كانت قد مضت دون أن يلبي أحدهم داعي الغوث ، وفي اليوم الثالث من شهر كانون الثاني سنة ١٤٩٢ استولى ملك قشتاله على غرناطة .. فكانت لحظة استبدال الصليب بالهلال على قلعة غرناطة من أهول الساعات التي مرت على المسلمين .. إذ كانت نذيرا بالقضاء على الحياة الفكرية والنشاط الصناعي في بلاد الأندلس .

بعد هذه المأساة الدامية .. سار أبو عبدالله ، أو ، أبو أبـدل ، كما يسميه الاسبان .. سار مع أسرته في الطريق قاصدين البكراس حيث كان ينوي الاقامة.. فلما وصل الى جبال بادول ألقى نظرة طويلة على غرناطة ثم أجهش بالبكاء فقالت له أمه لماذا تذرف الدمع كامرأة على فقد ما لم تستطع الدفاع عنه كرجل » وهنالك في « انداره » عاش قليلا من الزمن .. غير أن فرديناند رأى في وجوده في اسبانيـا خطراً يهدد مملكته .. وفي الحال أمر بنفيه الى افريقية ، فقصد الأمير البائس مدينة فاس وظل بها حتى وافته منيته سنة ١٥٣٨ [١].

هذه هي سيرة بني الأحمر في الأندلس أجملناها بالاستناد الى أوثق مصادر التاريخ ، وفيها الكثير من المآسي والعبر .

وكل ما نرجوه أن تكون قصص التاريخ ، وهذه القصة بالذات عظة لبعض الرؤساء والملوك المستسلمين لثعالبة الاستعمار الذين لا هم لهم إلا تمزيق الصف العربي، والايقاع بين الأخوة العربية ، لتعود لهم السيطرة . . ولن تتكرر هـذه المآسي والأمة العربية في يقظة عارمة ، وهي بالمرصاد لكل عميل يبيع نفسه للأجنبي .

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي لسيد امير علي ص ٤٧٠

في قصر الحمراء

٥ شباط ٩٥٤

ملأت الحمراء نفسي اعتزازاً وألماً ـ اعتزازاً بما صنعه العرب ، وحزناً والماً بما اقترفه العرب .

لقد قرأت كثيراً عن الأندلس وعن مدنها الكبرى .. وقرأت اكثر عن قصر الحمراء .. وما كنت أظن ان ما كتبه الكاتبون وبحثه الباحثون الالوناً من المبالغة .. حتى اذا قضيت بعض ساعات يومي في هذا القصر .. اتأمـل نقوشه وزخارفه ..غرفه وقاعاته ، حدائقه وجنائنه ، ابهاءه وباحاته ، مداخله وساحاته.. نعم ، لم أكد اقضي بعض ساعات يومي في هذا القصر العربي العجيب حتى تحقق لي أن كل ما كتب هو دون الواقع .

والواقع .. ان عبقرية العربي تتجلى هنا في أكمل صورها ..

فهذه النقوش العربية التي خلدت مع الأجيال .. وهذه الجـدران المموهة بالزخارف الذهبية الرائعةالتي تثير العجب وتأخذ بمجامع القلب والعين ـ انها تعطي ابلغ صورة عن الذهن العربي الذي كانت له يد وأي يد في صنع العبقريات

ان الوصف لا يغني . . ولا بدّ لمن يريد أن يتعرّف الى قصور الحمراء ـ الى زاويقها وزخارفها ـ الا ان يحجّ الى الحمراء

وحين تقذف به الاقدار الى تلك الديار ، ويطوف بتلك الامكنة سيبكي..
ولن يستطيع العربي مهما كان عضي الدمع إلا ان يذرف الدموع سخيه حين يختلج في نفسه هذا السؤال المثير :

كيف تخلّى الاجداد عن هذه الامجاد ؟

. . .

لقد فتح العرب الأندلس بقوة ايمانهم .. وعاشوا فترات طويلة في حياة التقشف لا يهمهم إلا اداء رسالة الفتح بمناهـا الواسع حتى اذا خلدوا الى الدعة والاطمئنان .. الى حياة اللهو والعبث .. الى التناحر والتنافس على الامارات أو على كراسي الحـكم كما نقول اليوم كان مصيرهم الانهيار والاضمحلال والتخلّي عن هذه الدنيا الجميلة التي افتتحوها بقوة الايمان ..

. . .

كان صباح ذلك اليوم الذي زرت فيـه قصر الحمراء من الايام العاصفة الباردة .. وكانت ذرات الثلج تتناثر في الفضاء . . وما كانت برودة الطقس ولا انحصار الثلوج لتحولا دون زيارة هذه الاماكن التي جئتها من مسافات بعيدة ..وما كانت اسبانيا ، على ما فيها من روائع ، لتجذبني لولا الاندلس لولا غرناطة وقرطبة واشبيلية وطليطله وما ضمته في اكنافهـا من امجاد لولا قصر الحمراء وجنة العريف ..

ولم امتط السيارة الـتي اعدّت للركب بل حرصت ان اتخبّط في هـذه الدروب على قدمي لأتمتع أكثر بجواد غرناطة وشوارعها ، بأزقتها ومنعطفاتها ، ببيوتها وناسها ، لاستمتع اكثر بجوّ المدينة التي كتبت عنها المجلدات لا لشيء إلا لانها تضم قصر الحمراء ، وقد كانت في الماضي عاصمة بني الأحمر . . وما كنت في حاجة الى السيارة وقد كان فندق «الحمراء» Hotel Alhamrra الذي حللت فيه غير بعيد عن القصر . وهو ، وقـد بني على الطراز العربي ، ملتقى الزوار من اطراف الدنيـا الذين يحجون الى كراناد « غرناطة » لزيارة قصر الحمراء .

والطريق المؤدية الى القصر قامت على جوانبهـا الاشجار الباسقة ، وهي صامدة لعواصف الطبيعة كأنها كوكبة من الفرسان المغاوير .. ومـع اننا في فصل الشتاء .. ومع أن الطبيعة متجهمة انوجه ، عابسة ، مكفهرة ، وليس ثمة نفحـات من فصل الربيع توقظ الاحاسيس ، فقد شعرت انني في فصل الربيع ، وان الدنيا فرحة ، مبتسمه تزغرد معي من الاعماق ..

أيكون الشعور بزيارة الاندلس وتحقيق الحلم الذي راودني طويلا بوصولي الى عتبة « فردوسنا المفقود » هو الذي قلب شتائي ربيعاً . .

ربما كان هذا هو الباعث الأكبر .

فقد كان لاخضرار اشجار السرْو والمانوليا والليمون والبرتقال أثر وأي أثر في نفسي فشعرت انني في الفيحاء ـ في دمشق الشام أو في طرابلس الشام .. لقد شممت رائحة بلادي ، ـ وغرناطة قطعة من وطني العربي القديم ـ ، وكثيراً ما شبهها الكتّاب بدمشق الشام لكثرة حدائقها ووفرة مياهها وطراز بيوتها وصحون دورها وبركها واحواضها وفسقياتها ..

ولقد تغلغلت في دروب هذه الجنة الفيحـاء . . ولا أقول الوارفة الظلال لأني في فصل الشتاء.. بل كانت نضرتها تتمثلّ لي كأني في قلب واحة من الزمرد.. عشت فترات مع الماضي في هذه الاخيلة الحلوة وانا في طريقي الى قصر أطـل على جنّة العريف ، وعلى جبال غرناطة ، وأوديتها وبساتينها وحدائقها ..

• • •

انني اليوم في كنف الحمراء

أقلعة هي أم قصر أم عدة قصور

انها قلعة وقصور وحدائق قامت على هضبات تحيط بها قمم عاليـــة صعبة المنحدر ، تتدفق في سفحها الشمالي امواه نهر حدرّو قبيل التقائه بنهر الثلج ، وقد حُصّن القصر باسوار غطيت بالمرمر ..

وقد سميّت « الحمراء » لأن اسوارها وجدرانها تضرب الى الحمـرة . . وربما جاءت هذه التسمية من لون التربة التي قامت عليها ، ومعظمها مبني من الخزف

والكلس والحصباء ..

والاثريون ، والمهندسون المعماريون بصورة خاصة ، في حيرة شديدة من صمود هذا القصر طوال هذه السنين دون ان يتهدم مع انه قد بني من مواد سريعة العطب

يقول شترزيكو وفسكي : « انه طراز وحده لا يماثله قصر اسلامي آخر يرجع الى مثل هذا التاريخ المتقدم مع بقائه في حالة جيدة الى حد ما ، وقد شيدت اسواره من الخليط المعروف بالبابيا ـ مزيج من الصلصال والجير والحصباء ـ واقيمت عقوده وقبواته ودعائمه واسقفه من الخشب ومواد البناء المصبوبة مما ينبيء عن طريقة أخرى في الصنعة ، وانشاءه من مادة سريعة العطب مما يجعلنا نعجب كيف تيسّر لهذا القصر أن يقاوم البلى حتى يومنا هذا [1] »

ويقول غوستاف لوبون : « لقد بلغ خصب الفن الاندلسي غايته في قصر الحمراء ، وعلى ما فيه من غلو في الزخرف تراه وليد الذوق الرفيع الذي لا يتجلى مثله في آثار دور منحط .. ومع أن جدر قصر الحمراء مصنوعة من مزيج من الكلس والرمل والصلصال والحصباء لا من الحجارة المنحوتة ، ومع أن زخارفه من الجص المضروب في القوالب تجده متيناً الى الغاية ، فقد قاوم تقلبات الجو مدة خمسة قرون من غير أن يحتاج الى ترميم ذي بال [2] ...

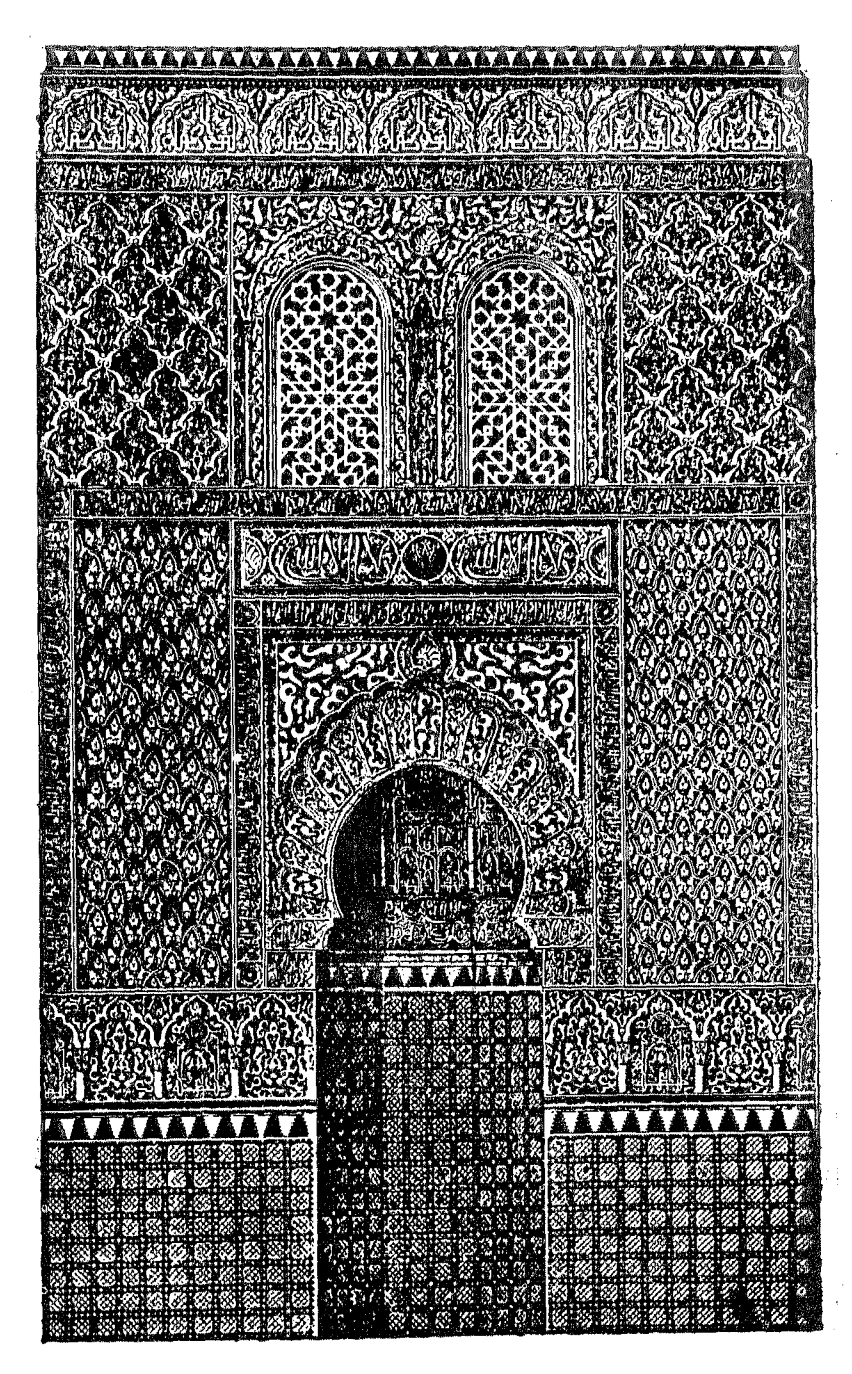
• • •

دخلت قصر الحمراء وفي ذهني حشد من المعلومات عن ماضيه وحاضره ـ عن بهو السباع وقاعة السفراء ، عن بهو البركة وقاعة الأختين ، عن قاعة العدل وقاعة بني سراج .. ويتكوّن قصر الحمراء من هذه القصور والقاعات .. وقد اجتزت المدخل الى باب العدل ، وهو مدخل تعلوه قبة ضخمة برتقالية اللون

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية . المجلد الثالث ص ٩٥

(٢) حضارة العرب ص ٥٦٨



محراب مسجد قصر الحمراء

تضرب الى الحمرة . . والمدخل ذو اروقـــة تعصف بها الرياح . ويحسّ الزائر بالوحشة والفراغ لخلوّ قاعاته وابهائه من أولئك القضاة الذين كانوا يجلسون للحكم بالعدل بين الناس .

وبرج العدل ، أو باب دار العدل ، هو أحد الابراج الاربعة التي يتكون منها مدخل الحمراء .. وقد بنيت واجهته من عقدين على شكل حدوة الفرس . ولفت نظري ، وأنا في البهو ، كتابة عربية فوقفت اقرأ وادوّن في دفتري هذه الكلمات التي تعبت في فكّ طلاسمها .. لقد نقش ما يلي :

« امر ببناء هذا الباب المسمّى بباب الشريعة ، اسعد الله به شريعة الاسلام ، كما جعله فخراً باقياً على الايام ، مولانا امير السلطان المجاهـد العادل ابو الحجـاج يوسف ابن السلطان المجاهد المقدس ابي الوليد بن نصر كافى الله في الاسلام صنايعه الزكية ، وتقبلّ اعماله الجهادية ، فشيدّ ذلك في شهر المولد المعظـم من عام تسعة واربعين وسبعمائة ، جعله عدة وافية ، وكتب في الاعمال الصالحة الباقية »

والتف حولي رفاق السفر .. وهم خليط من الامريكان والكنديين . . وأخذوا يحدقون بما ادوّنه ، وبكتابة بدت لهم جد غريبـــة .. من اليمين الى اليسار ، فأدركوا انني عربي . . ازهو باعمال اجدادي . . أي أزهو بالمـاضي دون الحاضر !

- ٢ -

من برج العدل الذي تقرأ على تاج العمود الايمن « الحمد لله .. ولا حول ولا قوة إلا بالله » كما تقرأ على تاج العمود الايسر : لا آله الا الله .. محمد رسول الله».

ـ من برج العدل الى قصر شارل الخامس الملك الاسباني الذي حاول ، حين تقلص ملك العرب ، ان يمحو روائـع تلك الآثار فبنى قصره على انقاض قصر من قصور الحمراء . فكان عمله وصمة في جبين التاريخ . . ولم يكتف بذلك بـــل حوّل بعض المساجد الاثرية في قلب القصر الى بيع وكنائس .. وقد اثارت هذه الاعمال الكثيرين من المستشرقين ورجالات الفنون وكبار المؤرخين فكتبوا المطولات منتقدين بمرارة ، ومنددين ببشاعة هذا العمل .

يقول المستشرق الالماني شاده :

« لقد حوّل شارل الخامس المسجد الاصغر الذي يلاصق قاعة الريحان الى بيعه .. وشوّه المسكن الملكي القديم فهدم الجناح الجنوبي الذي يرجح أنه كان يضم كنة الباب الرئيسية . بل صنع ما هو اشنع من ذلك فأقام مكانه بناءً على طرازاعصر النهضة ، له واجهة انيقة المنظر تناقض تمام المناقضة الاسوار الخارجية للقصر القديم التي كانت تمتاز ببساطة منظرها ، وثمة عمل آخر من أعمال تخريب الآثار القديمة .. ذلك أن مسجد محمد الثالث هدم واقيم مكانه كنيسة القديسة Santa Maria التي اضطلع بانشائها جون دوفيجا عام ١٥٨١ [١] »

وقال شترزيكو فسكي في هذا الصدد :

« وليس لدينا ما يحملنا على الاسف لفقدان العمائر والقاعات الاخرى اللهم إلا المسجد الذي هدمه شارل الخامس [٢] ..

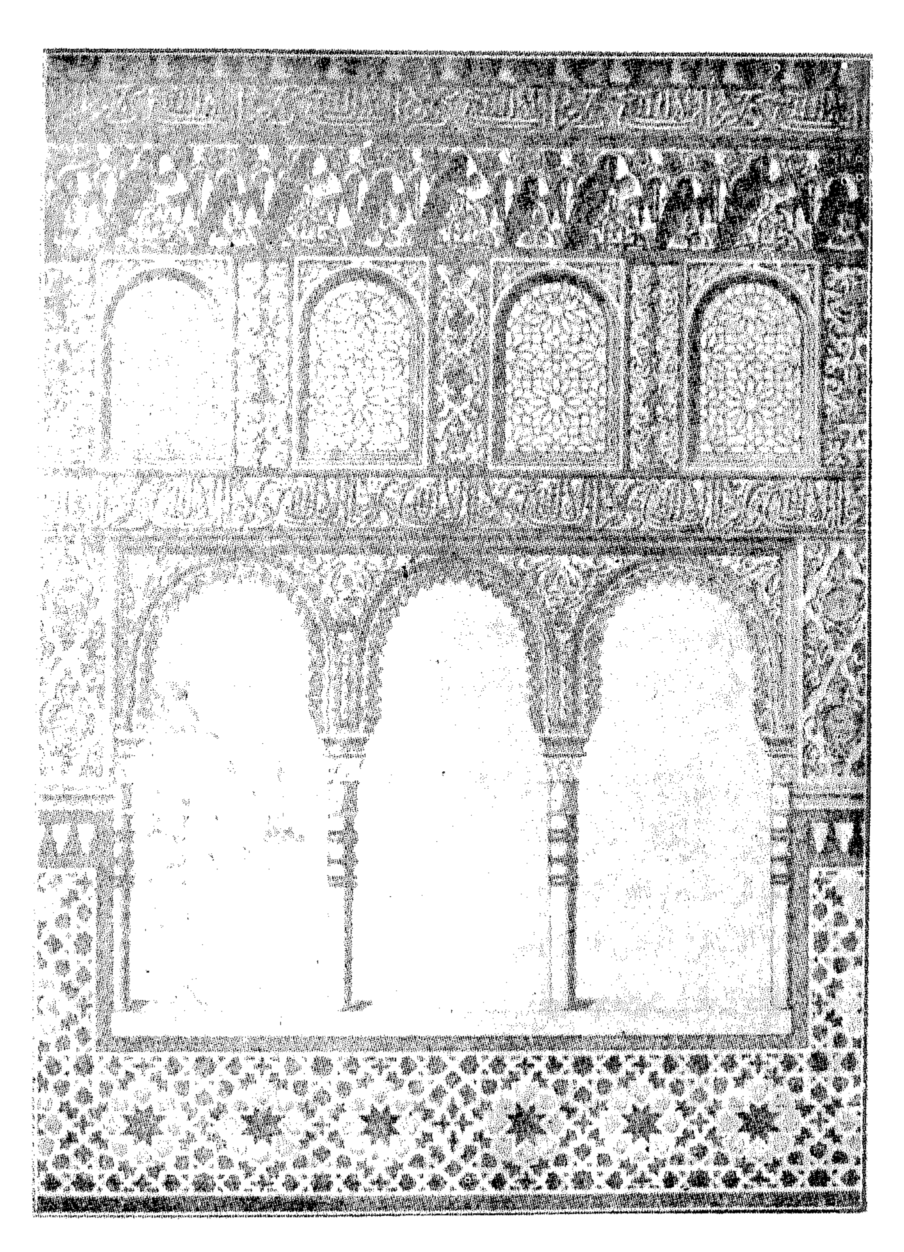
والمع غوستاف لوبون الى هذه الاثام المنكرة بقوله :

« وقد قصّ جميع رجال الفن الذين زاروا قصر الحمراء العجيب ، والألم ملء قلوبهم ، ما لا يكاد يصدقه من انباء التخريب الفظيع الذي احدثه الاسبان فيه .. وقد هدم شارلكن قسماً مهماً منه ، لينشيء مكانه بناءً ثقيلاً .. وقد عدّته جميع الحكومات الاسبانية مجموعة من الخرائب القديمة التي لا تنفع لغير الاستفادة من موادها [٣] »

وهكذا ، فان القصر الذي بناه شارل الخامس على انقاض قصر من قصور الحمراء كان وصمة في جبين هذه اللؤلؤة الغالية في روائع العمائر الاسلامية .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٨ ص ٨٧
(٢) » » » » » ص ٩٥
(٣) حضارة العرب ص ٣٢٠



زخارف إيوان في قصر الحمراء



ومرّت فترات طويلة تعرّض القصر لأيدي العابثين الناهبين على مرأى ومسمع من رجالات الحكومة الذين ماكانوا ليقدروا ما يضمه القصر من نفائس .

يقول مسيو دافيليه في كتابه عن اسبانيا :

« لقد بيعت الواح الميناء التي كانت تزين رداهَ الحمراء منذ بضع سنين ليستبدل البلاطُ بها ، وقد بيع باب مسجدها النحاسي كشيء عتيق ! وقد حرقت منها ابواب ردهة ابناء سراج الخشبية الانيقة كما يحرق الحطب .. ثم قد اتخذ من رداهها الجميلة سجون للمجرمين ، ومخازن للميرة بعد أن بيع ما امكن نزعة منها [1] ..

وما زال الاثريون يرون اثر هذا التشويه الى يومنا هذا كلما زاروا القصر .. ويقال أن الحكومة الاسبانية ستعمد — بعد أن ثارت ثائرة كل مغرم بالفن من كتّاب ومؤرخين ومهندسين ومعمارين واثريين — انها ستعمد الى هدم قصر شارل الخامس واعادته الى ما كان عليه في عهد بني الاحمر ليتم التناسق .. ولكن هيهات !

- ٣ -

لقد شعرت وأنا في قصر شارل الخامس بالانقباض ، فتركته أعدو الى قاعة الريحان أو الى صحن البركة .. وما كدت اتوسط الباحة الكبرى حتى شعرت في التنوّس ان انقباض النفس قد زايلني ..

وباحة « قاعة الريحان » كبيرة واسعة ، يتراوح طولها بين الثلاثين والاربعين متراً ، وعرضها في حدود العشرين متراً ، يبدو جمالها بحوضها المستطيل الذي يتوسطها ، وقد قامت حوله شجيرات الريحان أو شجيرات من « الشمشير » الذي يحاكي الريحان .. وأول ما يلفت نظر الزائر هذه العقود العربية التي استندت الى عمد مرمرية هي ركائز القاصير ما تزال بهجة للناظرين

---

(١) حضارة العرب ص ٣٢٠

« وفي شمال هذا الصحن ـ صحن البركة ـ سبعة عقود تامة الاستدارة اكبرها العقد الوسط ، عليها شرفات ومقاصير تحار العقول في وصفها ، يماثلها ، في الجنوب ، سبعة عقود أخرى فوق أعمدة رشيقة تهدم ما فوقها لبناء قصر شارل الخامس خلفها .

وقد زخرفت العقود والمساحة التي تعلوها بالجص المزخرف بفروع نباتية وانصاف أوراق النخيل بدقة فائقة ، كما تنتشر عليها كتابات عربية تنهي نهاياتها بزهور على ارضية نباتيه ، ويحيط بعقود الابواب والنوافذ شريط من الفسيفساء تكررت فيها آيات قرآنية وكتابات دعائية مثل « نصر من الله وفتح قريب » ، « وبشر المؤمنين » كما كتب في بطن العقد الاوسط « عز لمولانا ابي عبدالله » وعلى العقود الصغيرة « محمد رسول الله ، ولا اله الا الله » ويعلو هذه العقود بلاطات جصية مخرمة ينفذ منها الضوء الى داخل العقود [1] »

- ٤ -

من قاعة الريحان الى قاعة السفراء ، وهي القاعة التي كان يستقبل فيها ملوك بني الأحمر سفراء الافرنج ، انشأها ابو الحجاج يوسف بن الاحمر .

دخلنا فناءها متأملين ، وقد بهرتنا زخارفها وروعة نقوشها المذهبة : انها شيء يشده العقل . . فحيثما تنقل الانسان تراءت له دقة الفن العربي ، سواء بهذه النقوش أو العقود أو المقرنصات أو الكتابات العربية التي ازدانت بها الجدران والمداخل والسقوف . . كل شيء قد لعبت فيه يد الفن بمهارة عجيبة ودقة فريدة .

ومن الاشعار التي قرأناها في قاعة السفراء القطعة الآتية :

انا محلاة عروس	ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف	فضل صدقي في مقالي
واعتبر تاجي تجده	مشبهاً تاج الهلال

(١) محمد رجب البيلي . المقتطف مجلد ١١٢ ج ٥ ص

وابن نصر شمس فلك   في ضيــاء وجمال
دام في رفعة شأن   آمنـاً وقت الزوال

ولكن وا اسفاه .. فان حدس الشاعر لم يصدق فلم يبق ابن نصر في رفعة وجلال ، وان ملكه الذي تمنّى له شاعره الخلود قد زال!

- ٥ -

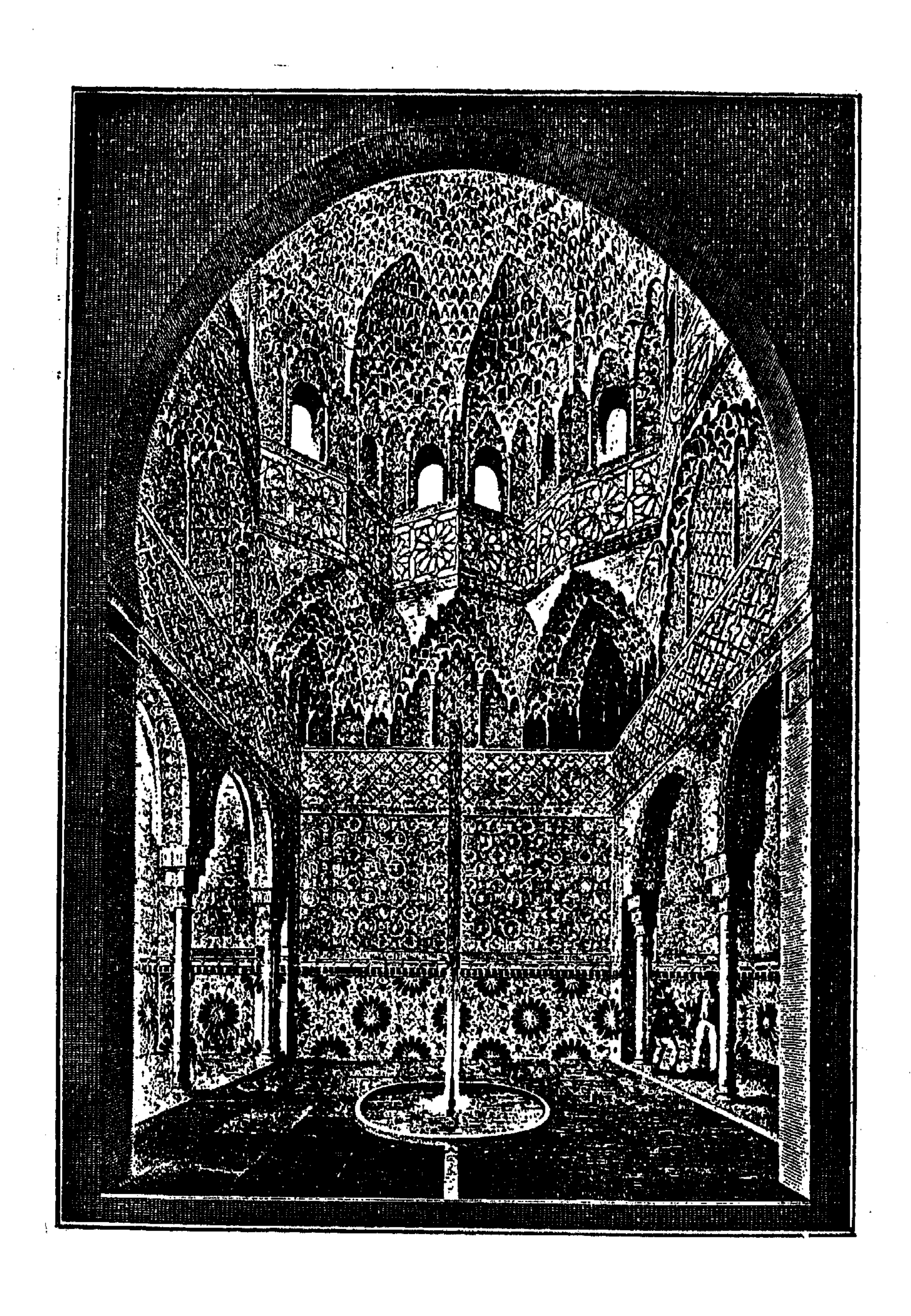
تركنا قاعة السفراء الى بهو السباع ، وهو الذي كثر الحديث عنه .. فما من زائر في الماضي أو في الحاضر الاخص هذا البهو بالكلام الكثير ..

فالواقع ، انه اعظم ابهاء قصر الحمراء .. يبلغ طوله ١٠٠ قدم وعرضه ٥٠ ، وأنت حين تسير بين أروقته التي قامت على أكثر من مائة عمود مرمري تقف مشدوها بتناسقها الجميل وبعقودها ذات التخاريم الزخرفة البديعة . . ولعل اظهر ما في هذا البهو النافورة التي تحمل اثني عشر اسداً من المرمر الابيض ، يقذف كل أسد المياه من انبوب في فمه . وقد نحتت هذه الاسود الى حد ما على طراز رؤوس الحيوانات ، ونقشت عليها كتابات كوفية من شعر ابن زَمرَك ، وأبن زَمْرَك هذا آخر علم من أعلام الشعر الاندلسي ، عاش في ظلال بني الاحمر . وكان معنياً ، الى جانب المدائح التي كان يقولها في السلاطين ، بقرض المقطعات الوصفية ، وخاصة في وصفه « الحمراء » وقصورها وبساتينها والحفلات التي كانت تقام في قصورها ، وشعره فيها يبدو وكأنه « انغام راقصة متدفقة ، ترقص على وقعها الزهور والنجوم ، وتفيض بالأخيلة والتشبيهات المتشابكة ، وأن مَنْ يعرف هذه القصور ليجد في ذلك الشعر ، كما قال المستشرق الاسباني غومس تصويراً بديعاً .. ومن شعره المنقوش على بركة صحن الاسود وعلى جــدر بهو « الاختين » قصيدته المعروفة التي قالها في وصف دار الملك التي ابتناها السلطان محمد الغني بالله .

سل الافقَ بالزهر الكواكب حالياً
فأنيَ قــد أودعته شرح حاليــا

وحملتْ معتل النسيم امانة
قطعتْ بها عمر الزمان امانيا
تبارك من اعطى الامام محمداً
مغاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع
ابى الله أن يلفى لها بالحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شفّ نورها
تحلّى بمرفضّ الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر
عدا مثلها في الحسن ابيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد
فلم ندر أيا منها كان جاريا
الم تر ان الماء تجري بصفحها
ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه
وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة
تفيض الى أسد الجهاد الايادي
فيا من رأى الاساد وهي روابض
عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الانصار لا عن كلالة
تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً
تجدد اعياداً وتبلي اعاديا

• • •



قاعة البركة في قصر الحمراء



والحق ، ان الانسان ليعجز ، كما قال جيرول دوبرانجه ، عن بيان ما يشعر به حين يمرّ من قاعة البركة ويدخل في قاعة الاسود فيرى فيها الاروقة التي تزينها الاقواس المنوّعة المزخرفة بالنقوش المزهرة والزخارف المتدلية المقرنصات والتخاريم التي كانت ذهبية ملونة ، وتقع عينه على غابة من الاعمدة الهيف التي وضع بعضها منفرداً ، وبعضها مزدوجاً ، وبعضها مجتمعاً على شكل بديع . والتي يبصر من خلالها التماع مياه فسقية الاسود المتدفقة . .

ولم نشاهد المياه المتدفقة لان الصقيع كان قد جمدّها وأضفى عليها نثاراً من قطع الثلج فجاءت كقضبان من اللجين . .

- ٦ -

من بهو السباع الى قاعة الاختين التي تطل على حدائق الملكة أو حدائق الريتون .. ثم الى قاعة الملكة . وهي القاعة التي كانت تسكنها الاميرة عائشة زوج السلطان ابي الحسن ـ ولهذه الاميرة قصة غريبة ذات ذيول ـ ، وتعدّ هذه القاعة كقاعة الاختين من اجزاء القصر الخاصة بالملك وحريمه ، وتتصل من ثلاث جهات بثلاث مقصورات صغيرة اعدّت للنوم ، ولا يداني هذه القاعة أي جزء من أجزاء الحمراء لجمالها وتناسق زخارفها الجصية الدقيقة . .

ثم هناك قاعة بني سراج التي كان فيها مصرعهم ، وهي أيضاً كسائر قاعات القصر بجمالها وروعة زخارفها .

ويقودنا الدليل الى الحمامات الملكية ، وتتألف من قاعة كبيرة مغطاة بقبة كبيرة ذات اقمار ونجوم اقيمت على عقود رشيقة يحيط بها شرفة اعدّت لجوقة موسيقية من الحسان لتشنّف اذان المستحمين الذين يستريحون من عناء الاستحمام . ولم تخل هذه الحمامات ايضاً من الزخارف والنقوش وأبيات من الشعر ترمز الى الهناءة التي يحسّها الانسان بعد دخوله هذه الحمامات ..

- ٧ -

من القصور والقاعات والردهات الى حدائق القصر ـ الى « جنة العريف »

وقد كانت غرناطة ، في عهد العرب ، مليئة بالجنائن والجنّات .. وكل من قرأ تاريخ الأندلس يعلم انه كان لبني الاحمر في غرناطـة في اوائل المائه الثـامنة ما يناهز مائتي جنة كجنة النخلة السفلى . وجنة النخلة العليا ، وجنة ابن عمران ، وجنة العرض ، وجنة الحرف وجنة العريف وهي اشهر تلك الجنائن واخلدها لالتصاقها بقصور بني الاحمر .

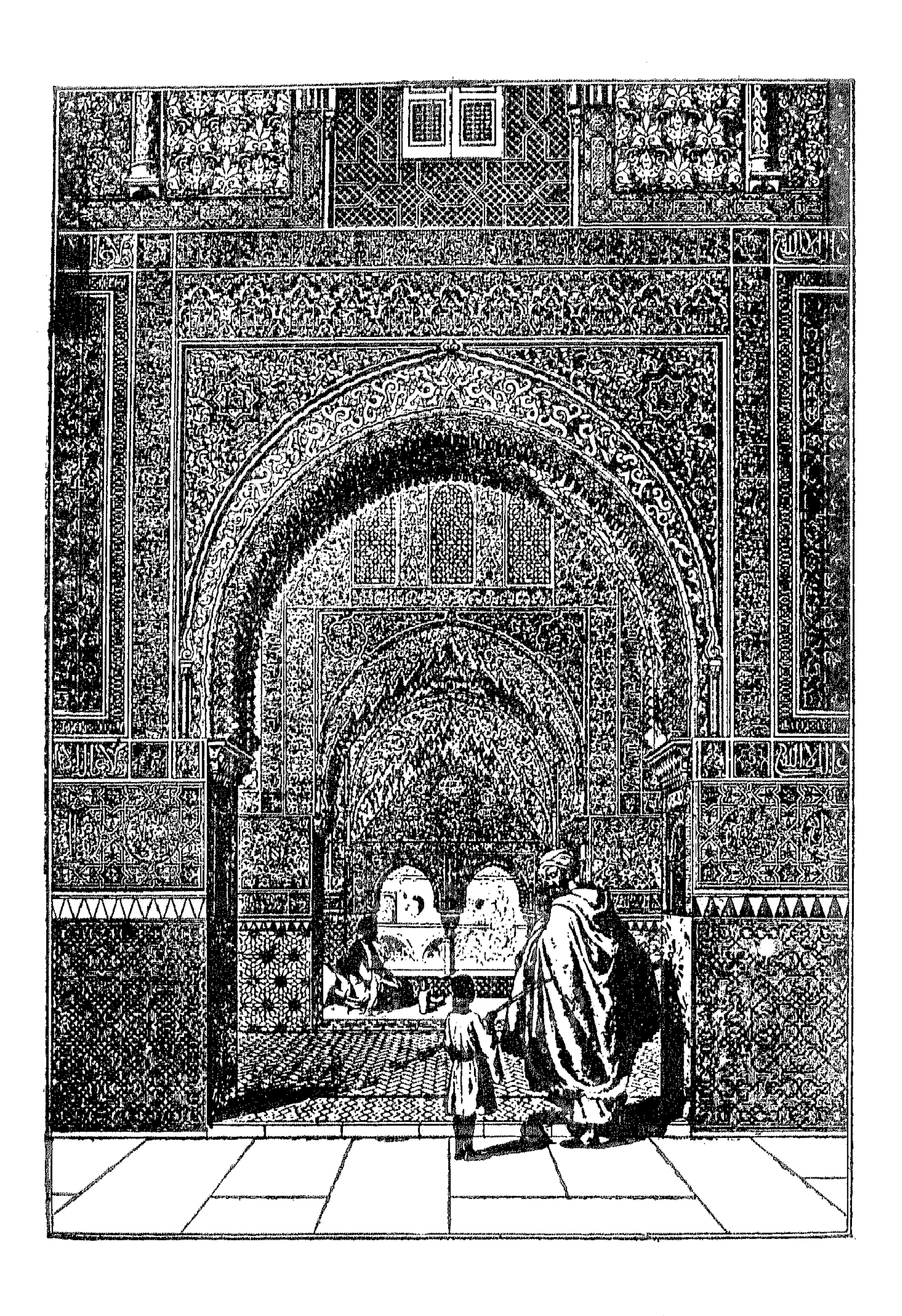
حقاً أن العرب الذين اقاموا هذا القصر بجناته الوارفة قد أرادوا أن يجعلوا منه صورة للنعيم في هذه الدنيا الفانية ـ صورة تشابه الجنة التي وعد بها المتقون .. وقد ذهبوا ـ ذهب الصالحون والطالحون ـ وظلّت جنتهم تهزأ بالامال الكاذبة التي اعتمدوها في خلود ايامهم وخلود ملكهم وسلطانهم . نعم ذهبوا ولم يبق إلا التلاوين والزخارف والنقوش الموشاة التي تتمثّل على اضوائها العبقرية العربية اصدق تمثيل .

* * *

من قصر الي قصر ، ومن باحة للرقص والغنـــاء الى احواض للسباحة والاستحمام .. الى مخادع للقصف واللهو .. الى جنّات قطوفها دانية .. هكـذا عاش الذين نعموا بقصور جنة العريف .

لقد مستّني القشعريرة ، حين رأيت الدليل الاسباني يشرح للامريكان ولغير الامريكان روائـع هذه الجنه التي انشأها اجدادي العرب — مستني القشعريرة فزهوت ثم بكيت : بكيت ملكاً عريضاً قد أضاعته الحزازات والعصبيات والتهافت على صولجان الحكم وبريق الرئاسات ..

وسرت اتنقل في أطراف هذه الجنة .. وهي « جوسق القصر الاكـبر » يصور ظاهره بساطة الفن الشرقي « حديقة كبرى مستطيلة الشكل ، تتوسطها بركة ضيقة ، يحفّ بأحد طرفيها رواق مكشوف . ويحيط بها وبالقصر بستان كبير له سور عال فيه باب كبير ، ويتدرج البستان على ثلاث مناطق تعلو كل منها الأخرى ببضعة امتار يصعد اليها بواسطة ادراج من الرخام ، في جوانبها نافورات ماء اذا فتحت ينبعث منها الماء على شكل اقواس من البلور تنتهي الى وسط البحيرة .



منظر النقط في قاعة الاختين بقصر الحمراء



بانغام شجية (١) .

وجنة العريف مليئة بأشجار الليمون والنارنج ، وقد راق لي ان اقتطف نارنجة فاحتفظت بها خلال الرحلة اشمّ عبقها ـ عبق تلك الجنة التي انشأها بنــو الاحمر لتكون صورة من فيحاء دمشق او فيحاء طرابلس وما تزال المعالم والصور هي هي لم تتبدل مع مرور الزمن .

- ٨ -

من جنة العريف الى القصر

عدت اليه اقضي بعض ساعات يومي وحدي بعد أن تخلصّت من ثرثرة الدليل ـ عدت اتأمل باحاته وقصوره ، نقوشه وزخارفه واقرأ الآيات . والاشعار التي نقشها الملوك البناة لتكون عظة لهم وللاحفاد ولتحذرهم من التدهــور والانزلاق ، ولكن العظة لم تلامس شغاف القلوب ، ويا للاسف ، فكانت المأساة التي ادمت القلوب وهزت النفوس وانزلت الدموع سخية من العيون ..

• • •

ان الحمراء من أمجاد العرب الضائعه .. وهي تثير فينا الكثير من الذكريات .. وهي اليوم موضع استغلال عظيم للاسبان ، يقصدها الناس من اطراف الدنيـا ، ويقضون ازاء روائعها مشدوهين ، وقـد وقف الكاتب الامريكي الشهير ارفنج واشنطون حين رأى القصر ورأى جنة العريف وقفة الحائر المشدوه .. جاءها زائراً ليقضي في ظلالها اسبوعاً أو اسبوعين فقضى سنتين وكتب كتابه الشهير « حكايات عن قصر الحمراء » الذي يروي اقاصيص عرب الاندلس واساطيرهم بأسلوب فذّ يدل على عبقرية مشعّة .

وزار غوستاف لوبون القصر وتملّى كثيراً مما تركه العرب في الاندلس من حضارة وعلم وفن فأثمرت هذه الزيارة فصولاً رائعة من كتابه حضارة العرب

ووقف فيكتور هوغو يناجي القصر بروحه الشعرية :

ايتها الحمراء .. ايتها الحمراء

(١) رحلة الاندلس للنبوني ص ٧٨

ايها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجملتك آية الانسجام ايتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالازهار والاغصان حينما تنعكس اشعة القمر على جدرك وقناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الالباب.

وغير فيكتور هوغو ، وغير غوستاف لوبون ، من كبار الادباء والشعراء الاجانب قد أذهلتهم روائع هذا القصر فكتبوا عنه الكثير واشادوا بعظمته .

. . .

ان لنا في هذا التراث الذي ضاع من ايدينا مفاخر كثيرة .. ان دلت على شيء فعلى قوة العبقرية العربية المبدعة الخاقه .. فهل يأتي اليوم الذي يعود فيه العرب الى البناء . ويفيدون من عظات الماضي فلا يفرطون بما تركه الاجداد نرجو ذلك . .

ولكن كيف يكون ذلك وليس لنا ايمان اجدادنا الذين بنوا ذلك الملك العريض ،لقد تركت القصر وأنا اردد مع الشاعر ـ والالم يعصر قلبي ـ قوله :

قلت يوماً لدار قوم تفانوا
اين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا اقاموا قليلا
ثم ساروا .. ولست أعلم أينا ؟

وداع

٦/٢/ ١٩٥٤

اودعك يا غرناطة لا كما ودّعك عبدالله الصغير

اودّعك لا بالدموع . . فقد سكب العرب عليك الكثير من الدموع بل بهذا الحس الذي أريد أن يوقظ كل عربي لنسترجع مجد الأجداد ، بل ليكون لنا من وراء ذلك عظة للاحتفاظ بالتراث الباقي مما تركه الأجداد . .

تركت غرناطة هذا الصباح وهي شبه مغفية ، تغمرها الثلوج التي احالتها عروسا مزهوة بثيابها البيضاء . .

تركت غرناطة فتركت قلبي عندهـا — عند فتاتها اللعوب ، عند أجمـل الاندلسيات على الأطلاق ، عند زينة الفتيات والمخدرات - اريد عند « جنة العريف » وقصورها الشامخات ، عند قصر الحمراء ، هذا الصرح الممرّد الذي لعبت في تكوينه الأيدي والاذواق والعقول . .

إن الزائر لا يشبع من التحديق في زاويقه ، ولا في زخارفـه ، ولا في نقوشه ، ولا في تلاويته ولا في قاعاته وابهائه ومقصوراته وحدائقه واحواضه

حيثما التفت الانسان يحسّ بالجمال ، يلمس ترف الفن ، يدهش بما وصل اليه الذوق العربي — الذوق خلق اعاجيب هذه الفنون.

نعم ، تركت غرناطة وكأني تركت ذاتي في افنائها ..

ان القلب ليهفو اليها ، وان النفس لتحنّ ، وأن الأنسان العربي ليشعر بالزهو والفخر وبالدموع والألم .

لقدوددت أن امكث طويلاً لأحدق النظر في كل جدار ، وفي كل قنطرة ، وفي كل قوس ، ولأتأمل بصمت وخشوع زخارف الفن في كل حجرة ، وكل تخريم.

ودعتها وأنا مغرورق الدموع

شعرت كأني اودّع اعز حبيب لي ، أثير الى نفسي

وأي حبيب أعز على النفس واحب الى القلب من هـذه التي يتمثّل فيها المجد العربي ـ مجد كريم يزهو بنفسه ويطاول العصور ..

أن الناس تحجّ من أقطار الدنيا الى هذا القصر ..

وانه ، والله ، لموضع الحجيج

وأقسم انني سأعاود هذا الحج .. وأرجو الا تحول الأقدار دون الوفاء بهذا القسم ..

ما سحابة يوم .. وما اسبوع ، وما شهر يقضيه الانسان في قصر الحمراء ..

انه يحتاج الى سنة واكثر من سنة ..

قصر الحمراء كنز من كنوز الفن نحمد الله ان العصبيات الدينية والارهاصات المذهبية والفورات القومية والرعونات الغوغائية لم تحطم زخارف هـذا القصر في ساعات الهوس والبغضاء والحماسة الكاثوليكية والا لكان العرب قد خسروا ، كما خسر الاسبان والحضارة الانسانية اعظم آثار الدنيا ..

لقد تحولت الجوامع الى كنائس ـ أي الى معابد يذكر فيها اسم الله .. وقد يشفع بذلك ذكر اسم الله في هذه المعابد .. اما أن يتحول القصر الى ثكنة مثـلا فيعتبر أكبر ضربة تنزل في صميم الحضارة ..

ثمانمائة سنة مرّت على هذا القصر ولا يزال كالعروس يزهو بروائعه وجماله ، بالوانه ودقيق صنعه .

انه مثال حيّ لجمال الفن العربي الذي يبهر النظر

اعود فاقول لقد ودّعت غرناطة ولكني اودعتها قلبي ـ اودعته عند قصرها

العجيب ، وسأظل أذكر هذه الزيارة الخاطفة مدى العمر ...

وما من زائر للحمراء الا ويذكر ، والدمع ينهمر من عينيه - يذكر وقفة ابي عبدالله الصغير آخر ملوك العرب على الاندلس ، حين وقف على التلة التي أطلق عليها الاسبان « تلة الدموع » يودّع غرناطة وهي تتوارى عن عينيه فالقى نظرة أخيرة على قصر الحمراء - نظرة مغمورة بالدمع ، محفوفة بالتنهدات فودّع بهذه النظرة الدامية والحسرة اللاذعة مجد العرب الضائع وفردوسهم المفقود - وهذا ما صوّره صديقي الشاعر حسن كامل الصيرفي في قصيدته التي أخذت اردّد بعض ابياتها وأنا ابتعد عن أرض غرناطة الحبيبة وقصرها المنيف والتي يقول فيها :

وداعاً جنتي وقرار قدسي
ومظهر عزتي وجلال أمسي
وما أنا غير آدم هام يبكي
على فردوسه في دار بؤس
لقد باع الجنان بغير ذلّ
وبعت أنا الجنان بخفض رأسي

لقد كنت أردد هذه الأبيات وأنا في غمرة من الدموع ، وما زلت حتى ابتعدت عن غرناطة فاستحالت دموعي جمرات في القلب .

من غرناطة الى مالقة

٦/٢/ ١٩٥٤

من غرناطة الى مالقة

ان الشمس تشرق من وراء جبال «سارانادا» فتجعل يومنا مشرق الجنبات..

ولمالقه ذكر كثير في تاريخنا الادبي والحربي

ويعتبرها المؤرخون «إحدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر .. كثيرة الخيرات والفواكه » .

قال الرحالة ابن بطوطة : رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير .. ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا .. وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن احوازها الى بلاد المشرق والمغرب .

وقال : وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى اقاصي البلاد.. ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرها ، لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارنج البديعة ..

لا أريد أن اسرد ما كتبه المؤرخون القدماء الذين وصفوها فقد مررت بهذه الكلمات استطراداً ..

فالواقع ، ان مالقة عروس جميلة واقعة على شاطىء البحر .

قطعنا الطريق بالسيارة بين الجبال المرتفعة والأودية المنخفضة وما زلنا الى أن وصلنا الى شاطيء البحر بعد أن نعمنا بالمناظر الخلابة ، مناظر الجبال والاودية المزدهرة بالاشجار المثمرة ـ باشجار الزيتون واللوز والكرز والليمون والبرتقال ومزارع القصب ..

ففي كل بقعة تتراءى صور من لبنان ..

ها نحن اولاء بالقرب من قرية في ذيل الجبل يرى المسافر في ملامحها مناظر من جونية على شاطيء البحر ..

فبيوت الفلاحين وطراز حياتهم ومزارعهم تكاد تشابه بعض الشبه بيوت الفلاحين اللبنانيين ، وما زالت السيارة تخبّ في الطريق حتى وصلنا الى مالقة بعد مسير ثلاث ساعات ونصف.. والمدينة ببيوتها وقصورها وشوارعها واشجار الليمون المنتثرة على حفافي ارصفتها تكاد تشبه مدينة طرابلس .

واتجهنا الى فندق ميرامار..وهو من الفنادق الفخمة التي يقصدها السواح، ولا سيما في فصل الشتاء ، للافادة من جو مالقة الدافيء ـ المدينة الهادئة الوادعة الواقعة بين الجبل والبحر .

والفندق : الى انه من الفنادق العصرية المتوفرة فيه كل وسائل الراحة والمتعة للزائرين ـ فهو عربي الطابع ـ اريد بطراز البناء والنقوش والاضواء والقناديل .. وحيثما سرت في ابهائه واجهتك كلمة « لا غالب الا الله » الشعار العربي الذي اتخذه الاسبان في تزيين بيوتهم وقصورهم وفنادقهم ..

بعد أن تناولنا غذاءنا الشهي ونحن نستمتع بالجو الدافيء اخذنا قسطنا من الراحة .. وبعد مغيب الشمس بارحنا ملقة الى الجزيرة الخضراء ..

١٩٥٤/٢/٦

والطريق من مالقة الى الجزيرة طريق جميل .. وهو على سيف البحر . ويكاد يحاذي الجبال المخضوضرة والاحراج الكثيفة .

وقد شعرنا اننا انتقلنا من فصل الى فصل ـ من الشتاء بثلوجه وعواصفه وزمهريره الى الربيع الباسم الذي ازدانت ارضه واشجاره بخضرة سندسية ، الى البحر بزرقته الجميلة وأنسامه العليلة ..

وقد بدت لنا قرى المزارعين المنتشرة هنا وهناك في وداعة وطمأنينة :

وبعد مسير ساعة ونصف توقفت سيارتنا عند قرية «ماربيلا Marbella » لتناول الشاي ، وهي قرية جميلة تتميز بالوداعة والجمال وغير بعيدة من « رندا »

ولم يكد الدليل يشير الى « رندا » حتى استيقظت في عواطف مثيرة .. وأخذت احدق في هذه القرية النائمة على كتف الجبل .

وسألت الدليل عما اذا كانت في طريقنا ، واننا سنقضي فيها ليلتنا . قال: لا .. انها تبعد أكثر من خمسين كيلو متر .. وهي ليست في طريقنا ..

قلت له كيف السبيل الى زيارتها ..

فضحك فرناندو وقال : لا سبيل الى ذلك . إنها بعيدة عن خط الرحلة ؟

وأخذت امطره باسئلة مختلفة عن ماضيها وحاضرها..وعن صفات اهلها .
وازداد اعجابه .. ولم يدر أسباب اهتمامي بهـذه القرية بالذات حتى فاق اهتمامي بقصر الحمراء مثلا .
لم يعلم أن هذه القرية تضم رفات شاعر ملتاع ما بكى انسان الاندلس بقدر ما بكاها شاعر رندا .
وودت أن اتخلف عن الركب ، وأن اصعد في الجبـال لأزور تلك القرية التي انبتت ابا البقاء صالح بن شريف الرّندي الذي رثى الأنداس ابلغ رثاء وغمز من الملوك الذين تهاونوا عن انقاذها أقذع غمز ، نعم ، وددت أن أزورهذه القرية لأقف وقفة خشوع أمام قبر هذا الشاعر .
وانتحيت ناحية ، وأخذت أنشد قصيدته التي يستذكرها الملايين ، والتي جرت على السنة الأدباء والشعراء والمتأدبين عبر السنين والتي مطلعها :

لكل شيء اذا ما تمّ نقصان
فلا يغرّ بطيب العيش انسان

لم اكد انتهي من انشاد بعض أبيات هذه القصيدة ، بصوت حزين ملؤه الدمع والانين ، حتى أثرت انتباه رفاق السفر فأخذوا يتساءلون في صمت عما اذا كنت ابكي ابا أو اما أو فلذة من افلاذ اكبادي ..
وسكتت ..
ثم أخذت أوجز لهم الموضوع
وتنبه الدليل الى كلامي واذا به يعلمني أن هذه القصيدة مترجمة الى الاسبانية ، ترجمها شاعر اسباني مشهور اسمه « خوان فاليرا .. وان طلاب كلية الآداب في جامعة مدريد يقرؤونها بدقة وفهم .
وتابعنا السير ...

. . .

فحيثما سار الانسان في هذه البقاع تثيره الذكريات الحزينة المؤلمة ..
ان الطبيعة الجميلة المزدهرة التي تواجهها في هـذه البقاع الساحرة تجعلني أعيش هذه اللحظات في غفوة عنها ..

أني ارجع مئات السنين الى الماضي ...

هذا هو الدليل يشير الى صخرة عالية أخذنا نقترب منهـا ، ويشرح لرفاق السفر . وهم خليط من مختلف الجنسيات ، أهمية هذه الصخرة ..

انها صخرة طارق .. أي اننا نقترب من جبل طارق ..

فأي ذكرى تثيره !..

لقدرجعت الفا ومائتي سنة الى الوراء .. وتمثلت طارق بن زيادذلك البطل الذي قال كلمته الحاسمة حين خشي أن يدبّ الخور في قلب جيشه ..

ان من يريد التراجع لا مناص له من الموت .. وما دام الموت هو الذي يرقبنا فما علينا إلا التضحية ..

ايها الجنود : ان العدو أمامكم والبحر وراءكم .. وما عليكم إلا التضحية ..

وتمت المغامرة التي كان زادها الايمان ..

فكم نحتاج اليوم الى قادة يؤمنون بما يقولون .. اذ لا ينقص العرب إلا الايمان .. اننا نقول كثيراً ولا نعمـل .. نحن في حاجة الى أن نعمل وأن نخفف لغطنا .. ولنا في الماضي اكبر الامثلة على التضحية والحرمان في سبيل المجد والخلود ..

كلما اقتربت من هذا الجبل ازدادت في نفسي الاحاسيس

اننا وجها لوجه أمام جبل طارق .

والفندق الذي نزلت فيه «رينا كريستانا Hotel Reinna Cristina» يطل مباشرة على الجبل .. انني سأنام ليلتي مع طارق .. ويا للهواجس التي ستخالجني في هذه الليلة .

الى قادس

٢٧/ ٢/ ١٩٥٤

تركنا الجزيرة الخضراء صباح هذا اليوم الى قادس

اجتزنا طريقاً ملتوية الى الجبال المخضوضرة ذات التعاريخ المليئة بالاحراج.
اننا نطلّ على البحر . . وقد بدا جبل طارق امامنا . . كما بدت الجبال المراكشية أو مراكش الاسبانية كما يريد الدليل ان يسمّيها . .

الشمس مشرقة ، والجو صحو ، ورفاق السفر اصبحوا أكثر من أربعة وجميعهم جاءوا يستمتعون بجهل هذه المناطق الساحرة . .

نحن على مقربة من مراكش ، ومن جبالها الشمّ التي حارب الامير الخطابي من قممها وريفها قرابة عشرين عاماً يقارع الاستعمار في كل بقعة من بقاعها . .

لقد كان النصر قاب قوسين من هذا البطل الصنديد لولا انه كان وحيداً في الساحة . . وكانت قوى ضخمة لدولتين استعماريتين كبيرتين تحالفتا للقضاء عليه . . اريد على ثورته حيث استطاع البطل أن يفلت من الاسر ، وأن يلجأ الى مصر . .

أي ذكريات مرت تثيرها هذه المواقع في نفسي وفي نفس كل عربي .

السيارة تسير سيراً وئيداً تارة ، وتخبّ مسرعة تارة أخرى ، وجميعنا مأخوذون بسحر هذه المناطق ولا سيما حين أخذنا نطل من فوق قمة الجبل على جانب البحر الاطلنطي ..

اننا نشرف على مناظر خلابة تهز المشاعر .

بعد مسير غير طويل اقتربنا من مدينة طريفة « Tarifa » التي تحمل اسم طريف بن مالك أحد القادة الذين أبلوا بلاء حسنا في فتح الأندلس ، وما زالت المدينة ، والاصح أن تسمّى قرية ، ما زالت تحتفظ أسوارها وبيوتها وقناطر سدودها ومأذنتها التي استحالت الى برج ـ ما زالت تحتفظ بالطابع العربي .

ما كدنا نبتعد عن «طريفه» حتى أخذنا نحدر الى الشاطيء ونستمتع بجمال الاطلنطي ـ بزرقة مائه وزرقة افقه .

حين يمر العربي بهذه المناطق يصبح شبه نشوان .. ولكن سرعان ما تنطفىء جذوة هذه النشوة التي تنقلب الى ذكريات مثيرة لا يكاد يردد اصداءها ويستعرض لهاية تلك الفصول المحزنة حتى تذرف الدموع

اننا نسير في جنّات الأندلس .

ولكن ما هي الخطيئة التي ارتكبها العرب حتى أخرجهم الله من هذه الجنات الوارفة كما أخرج آدم من جنته . خطيئتهم واضحة المعالم ..

فحين خلدوا الى نعيم الشهوات دبّت الاحقاد في نفوسهم وأخذوا يقتتلون في سبيل المجد الكاذب وفي سبيل الامارات الخاوية .

تفرقت كلتهم بعد أن كانت مجتمعة ..

انصرفوا وراء المغريات والشهوات وبريق الرئاسات . .

ولولا هذه الخطايا المنكرة التي اقترفتها نفوسهم الصغيرة لما خرجت الاندلس من أيدي العرب .. ولكان شأنهم اليوم غير شأنهم بالأمس

ما مررت ، علم الله ، ببقعة فيها أثر عربي إلا زحمتني هذه الهواجس الحزينة .

• • •

ان السيارة في طريقها الى قادس ..

يوجّه الدليل انظارنا الى مزرعة واسعة يدرّب الثيران في حقولها للمصارعة ، وهي اللعبة التي اختص بها الاسبانيون والتي اصبحت من تقاليدهم القومية حيث تقام لها حفلات يقصدها الناس ، كل ربيع ، من أطراف الدنيا .

من هذه المزارع الواسعة الى بعض القرى النموذجية التي بنتها الحكومة ، وهي بيضاء اللون ذات طراز غاية في البساطة .

ونترك البحر لنصعد في الجبال من جديد .

اننا في ظلال قرية عربية الطابع تسمى Gerez de la fromtera »

ان اكثر القرى العربية شيدت في المرتفعات وهي اشبه بالحصون ..

كان الاجداد شدّ حذرين من المفاجئات ..

ولكن الاحفاد ، وقد انغمسوا في نعيم الشهوات ، اهملوا حذر الاجداد ، فتنافسوا على الحكم وكانوا صرعى المفاجئات .

. . .

دخلنا قادس ظهر يوم الاحد ...

أي بهجة تغمر المدينة هذا اليوم ..

كانت تغص بالقادسيات الخارجات من حرم الكنيسة وعلى رؤوسهن طراح سوداء . فتيات كرونق الضحى .. اخذن يخطرن كالظبيات في طريقهن الى شاطيء البحر ..

وكان الشباب الطري العود يلاحقهن بنفوس ثائرة وافئدة مشبوبة فيتبسمن ويتضاحكن ويبذلن الوعود الصحيحة أو الكاذبة لا ادري .

آكثر ما لفت نظري خطواتهن الرشيقة ، وضحكاتهن المسكرة ، وغنجهن المثير الرقص .

. . .

ان قادس مدينة جميلة ذات ابنية حديثة ، يقدر عدد نفوسها بمائة الف نسمة ، وبالرغم من ابنيتها الحديثة ، ما تزال تحتفظ بالطابع العربي .

وهي مدينة مبتسمة ، مشرقة ، كبيرة ، كثيرة النضرة والاخضرار حتى لتعتبر من اعظم شواطيء الجنوب في اسبانيا ، يقصدها السواح في الشتاء فيقضون اياما واسابيع في جوّها السحري الدافيء .

* * *

بعد ان تناولنا غذاءنا في فندقها الكبير المطل على الشاطيء الاطلنطي زرنا كاتدرائيتها الكبرى ، وهي فخمة ذات تزاويق جميلة ، تضم مجموعة نادرة من اللآليء والاحجار الكريمة عدا الكنوز الذهبية .

وحسب القاريء ان يعلم ان للكاتدرائية تصميماً من الذهب الخالص زنته ٢٢/ كيلو غراماً ، وقد ازدان هذا التصميم الفريد بالعقود الثمينة والاحجار الكريمة ـ من زمرد ولآليء .

وقد تسأل من أين لهؤلاء الكهنة الاجلاء ، وحياتهم تقوم على الزهد والتقشف هذه الكنوز التي لا تقدر بثمن .

وسألت نفسي هذا السؤال ورأيتني اتقدم من الأب المحترم اسأله لأبدّد حيرتي ، ولم يبخل بالجواب ..

قال : ـ انها هدية مراب كبير مرض في اخريات ايامه وكان قد جمع ثروة من جيوب الفقراء والارامل فتقدم الى الهيكل بكل ما يملك من ذهب وفضة ولآليء وعقود ليكفرّ عن ذنوبه وخطاياه .. لعل الله يغفر له ويمنّ عليه بالشفاء .

انها عظة وأي عظة ..

* * *

وفي خزائن هذه الكاتدرائية عشرات الكنوز النادرة ـ صلبان وأيقونات وشمعدانات ، وزخارف وصحون ذهبية مطعمة بالبلاتين والكثير مما يقف الزائر ازاءه مدهوشا .

وقبل ان تنتهي زيارتنا لفت الأب المحترم نظرنا الى صحن وضع فيه مفتاح المدينة الذي سلمه العرب الى القشتاليين .

لقد اصبح هذا المفتاح من ذكرياتهم المقدسة التي تحتفظ به الكاتدرائية كأثر من أعظم الاثار ـ تفوق قيمته قيمة جميع ما في الكاتدرائية من ذهب ولآليء وزمرد واحجار كريمة .

تركت الأب يشرح للزائرين قصة هـذا المفتاح الذي استحال في نظري نصلاًداميا يقطع نياط قلبي .. وخرجت مسرعا الى باحة الكاتدرائية اتنفس الصعداء وعيناي تطفران بالدموع

عدت الى الفندق أخلو الى نفسي وأعيش في خضم الذكريات المحمومة التي كانت تتقاذفني كما تتقاذف موجات البحر كرة تطفو على مياهها، مرة كنت غوص الى الاعماق أعيش في دياميس عفنة مظلمة من اوزار المتكالبين على الرئاسات، وتارة يرتفع بي الموج على اثباج من الامجاد فأنتشي واعتز .

لقد وددت لو يتاح لي أن اقضي اسبوعا في هذه المدينة الوادعة ، وفي فندقها الكبير استمتع بالدفء واتخلص من مواضعات الحياة واعبائها ، اقرأ واتأمل واكتب ولا شيء الاّ الدعة والاطمئنان .. ولكن انىّ لي ذلك، والرحلة موقوته ، وقد حددت ساعاتها وايامها بميعاد .

وحين جلست أتأمل البحر بعد غذاء شهي رأيتني اغفو ... ولكن ما هي غير لحظات قصار حتى رأيت الدليل ينادي الركب .

كنت في غفوة حالمة مع اسطورة قديمة من اساطير هذه المدينة ـ قصة الرحى والطلسم ..

وهي قصة تنبثق من بين سطورها الكثير من المفارقات العجيبة التي تصور بطولة الفداء والمغامرة في سبيل الحب والدفاع عن الوطن .

تقول الاسطورة ـ كان يحكم جزيرة قادس ملك له ابنة في غاية الجمال ، وقد خطبها كثيرون من مـلوك الاندلس فلم تلبّ طلب احد ، ولما كثر الحاحهم اشترطت ان يكون زوجها ملكاً حكيماً ، وإذ لم يكن بينهم غـير

اثنين تجمعت فيهما صفة الملك الحكيم فقد تقـدما بطلب يدها . ولم تحل المشكلة فأيهما تختار ؟

كانت الفتاة على جانب عظيم من الذكاء فرأت ان تجعل التنافس بينهما على أمر يخدم وطنها ، وبعد تفكير عميق قالت : ـ انها لا تتزوج الا برجل يصنـــع لجزيرتها طلسما يمنـع البربر من غزوها ، أو من يجرى اليها المـاء العذب يروى ظمأ مواطنيها .

وكان الطلبان من المطالب العسيرة

وبالرغم من صعوبة تحقيق هذين الطلبين فقد قبلا شرطها .

اختار احدهما ان يغمر الجزيرة بالماء العذب ، واختار الثاني صنع الطلسم لمنع دخول البربر .

واخذا يعدان العدة ويجترئان على المعجزات ليل نهار لتحقيق رغبـــة الحسناء على ان يكون كل واحد اسبق من صاحبه .

واتمّا المشروع في فترة جد قصيرة ، اما صاحب المشروع الاول «مشروع المياه » فما كاد ينتهي من عمله حتى كتم الامر لمكيدة في نفسه ، وأما صاحب الطلسم ، وهو فنان ، كان يعمل بتؤدة مراعيا ادق موحيات الفن ، وقد اتم عمل التمثـال ولم يبق غير صقل الوجه ببريق الذهب .

في هذه الفترة بالذات اعلن منافسه الانتهـاء من مشروعه واجرى المـاء رقراقا في ارض الجزيرة ، واذ سمـع صاحب الطلسم بخرير الميـاه يقرع اذنه وهو في اعلى قمة التمثـال الذي بلغ علوه ستين ذراعا انهارت قواه وسقط من أعلى البناء ميتاً .

وهنا كانت فرحة منافسه جد عظيمة ، فتحققت امنيته الغـالية بكده ومكيدته ، وفاز بقلب الاميرة ، وليس هذا فقط بل اصبحت الامـيرة والطلسم من حقه ..

• • •

ما كدت افيق من غفوتي على اسطورة هذا الطلسم(١) الذي ارادت اميرة قادس ان تقيمه لتدفع عن وطنها غزو الفتوحات حتى رأيت الدليل يحث الركب لمتابعة السير ففاجأته بسؤالي عن مكان الطلسم ، فلم ينتبه ، وكررت السؤال مرة ثانية دون أن احظى منه بجواب ، وشعرت انه لم يفهم ما افضيت اليه ، وحين رجعت ، بعد عودتي الى المصادر العربية رأيت صاحب معجم البلدان يقول : انه قرأ في كتبهم ان الطلسم هدم سنة ٤٠ / هـ رجاء ان يوجد فيه مال فلم يوجد شيء .

واستأنفنا السير الى اشبيلية .

• • •

---

(١) جاء في نفح الطيب ما يلي :
كان بنواحي غرب الاندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس ، وكانت له ابنة في غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الاندلس ، وكانت الاندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة او بلدتين ملك ، فخطبوها وخشي ابوها ان زوجها من واحد اسخط الباقين ، فتحير واحضر ابنته ، وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم واناثهم، ولذا قيل ان الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة اعضاء من اهل الارض – ادمغه اليونان ، وايدي اهل الصين ، والسنة العرب ، فقال لها : يا بنيتي اني اصبحت على حيرة في امرك ممن يخطبك من الملوك ، وما ارضيت واحدا الا اسخطت الباقين فقالت له : اجعل الامر الي تخلص ، فقال وما تقترحين ؟ فقالت : ان يكون ملكا حكيما ، فقال : نعم اخترته لنفسك ، فكتب في اجوبة الملوك الخطاب ـ انها اختارت من الازواج الملك الحكيم ، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما ، وكان في الملوك الخاطبين حكيمات ، فكتب كل واحد منهما انا الملك الحكيم ، فلما وقف على كتابيهما قال لها : يا بنية بقي الامر على اشكاله ، وهذان ملكان حكيمان ايهما ارضيت اسخطت الآخر ، فقالت: سأقترح على كل واحد منهما امرا قالت ايهما اسبق الى الفراغ مما التمست كنت زوجته ـ قال: وما الذى تقترحين عليهما ؟ قالت : انا ساكنون بهذه الجزيرة ومحتاجون الى ارحي تدور بها ، واني مقترحة علي احدهما ادارتها بالماء العذب الجاري اليها من ذلك البر ، ومقترحة علي الآخر ان يتخذ لي طلسما نحصن به جزيرة الاندلس من البربر ، فاستظرف ابوها ذلك ، وكتب الى الملكين بما قالته ابنته فاجاباه الى ذلك : وتقاسماه علي ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما في عمل ما اسند اليه من ذلك .

تتمة الحاشية (ص ٦٩)

فاما صاحب الرحي فانه عمد الى اشكال اتخذها من الحجارة ، نضد بعضها الى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الاندلس والبر الكبير في الوضع المعروف بزقاق سبته وسدد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، واوصل تلك الحجارة من البر الى الجزيرة — وآثاره باقية الى اليوم في الزقاق الذي بين سبتة والجزيرة الخضراء ، واكثر اهل الاندلس يزعمون ان هذا اثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبته الى الجزيرة ، والله اعلم أي القولين اصح ؟ غير ان الشائع الى الان عند الناس هو الثاني ، فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال في البر الكبير ، سلطه من ساقية محكمة وبنى بجزيرة الاندلس رحى على هذه الساقية .

• • •

واما صاحب الطلسم فانه ابطأ عمله بسبب انتظار الرصد المواقق لعمـله ، غير انه عمل امره واحكمه، وابتنى بنيانا مربعا من حجر ابيض على ساحل البحر ، في رمل عالج حفر اساسه الى ان جعله تحت الارض بمقدار ارتفاعه فوق الارض ليثبت ،فلما انتهى البناء المربع الى حيث اختار صور النحاس الاحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربري وله لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة في رأسه لجعودتها ، وهو متأبط بصورة كساء ،قد جمع طرفيه على يده اليسرى بالطف تصوير واحكمه ، في رجله نقل وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط ، وهو شاهق في الهواء طوله ينيف عن ستين او سبعين ذراعا، وهو محدودب الاعلى الى ان ينتهي ما سعته قدر ذراع ، وقد مد يـده اليمنى بمفتاح قفل قابض عليه ، مشيراً الى البحر كانه يقول — لا عبور ، وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه انه لم ير قط ساكنا ، ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربر الا سقط المفتاح من يده ، وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان الى فراغ العمل — اذ بالسبق يستحق زواج المرأة .

وكان صاحب الرحى فرغ اولا — لكنه اخفى امره على صاحبه لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم ، ليحظى المرأة بالرحى والطلسم ، فلما علم باليوم الذي فرغ صاحب الطلسم في آخره ، اجرى الماء في الجزيرة من اوله وادار الرحى ، واشتهر ذلك فاتصل الخبـر بصاحب الطلسم وهو في اعلى القبة يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهبا ، فلما تحقق انه مسبوق ضعفت نفسه، فسقط من اعلى البناء ميتا ، وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم .

الخطاب الذي غيّر وجه التاريخ

أريد خطاب طارق بن زياد

الخطاب الذي أثار حماسة الجنود فأصبحوا كالمردة لا يهابون الموت بل يستعذبون شرب كأسه المرّ حتى الثمالة وهم في نشوة مرقصة ـ النشوة التي ارتفعت بهم الى مرتبة الشهداء الابرار ..

فتية سمر الوجوه ، ممتلئو الحمية والايمان ، جاءوا من قلب الصحراء لنشر رسالة الحق فما كادوا يقطعون آلاف الاميال وتحاذى أرجلهم مضيق الجبل يحدقون بمياهه الزرقاء حتى وقفوا مذهولين يداعب اليأس افئدة بعضهم .

ويشعر القائد الأعلى بما خامر نفوس بعضهم فيصرخ صرخته المدوية فاذا بهم ينقلبون خير منقلب : من يأس مرير الى أمـــل باسم عريض ، من خوف تهلع بها النفوس ، الى شجاعة الابطال الصناديد ، من اضطراب وخور وضعف ، الى عزيمة وقوة واندفاع .

نعم ، ما كادت خطبة طارق تلامس شغاف قلوبهم حتى هزّتهم هزاً ، وللكلمة قدسيتها وأثرها في النفس .

والانسان ، في الفترات العصيبة الحاسمة ، ينقاد لثورة العاطفة الهائجة أكثر من انقياده للخطط التي يرسمها الفكر المتزن .

وتاريخ الثورات والفتوحات مليء بالشواهد على ان الكلمة لعبت دورها الخطير في الكثير من الاحداث ..

وكثيراً ما دهورت تيجانا ، واطاحت برؤوس ، وأحـــدثت ثورات وانقلابات ..

نعم ، ان خطب القادة ، في مختلف عصور التاريخ ، لعبت دورهـا الخطير في تغيير اتجاه سياسات ، ومصير حروب وفتـوحات ، وربما كان أثرها في النفوس أبلغ من الحديد والنار ..

مرّت بي هـــذه الخواطر وأنا في الجزيرة الخضراء ، في فندق الملكة كريستينيا .

وأي عربي يقترب من جبل طارق ولا يذكر هذه الحقبة من تاريخنا الوضيء ويذكر معها بطولة طارق بن زياد وخطبته الشهيرة .

في الفندق تعرّف بعض رفاق الرحلة الى القنصل البريطاني فما كادوا يفاتحونه بزيارة جبل طارق حتى اذن لهم بالزيارة .

كنا اربعة على مائدة العشاء ، مدير محطة التلفزيون في كندا وزوجته ، وسيدة أميركية وأنا .. وسرعان ما تركنـا المائدة قبل ان ننتهي من وجبـة العشاء وقمنـا نغتنم هذه الفرصة الثمينة .. وكنت أسرعهم في تحقيق هذه الرغبة، ولا سيما ، وبرنامج الرحلة يقتضي الا يطول مقامي في الجزيرة الخضراء اكثر من سواد هذه الليلة فقط !

واخذنا طريقنا الى جبل طارق ،فما كدنا نعبر الحدود الاسبانية حتى قيل لنا هنا تبدأ الحدود الانكليزية .. واذا نحن في منطقة محصنة الابواب الحديدية ، واذا الجنود الانكليز يواجهوننـا بسماتهم الـتي تخفي وراء انفراج الاسارير قسوة صارخة !

وبدأت الاسئلة والاجوبة وفحص الجوازات والتحديق بالوجوه والسحنات.. ثم بدأت الاتصالات الهاتفية .. وبعد برهة طويلة سمح للكندي وزوجته وللسيدة الاميركية ، ومنعت أنا العربي السوري من دخول هذه البقعة العربية !

ولماذا ؟

ـ وتأشيرة القنصل التي وشح بها جوازي يا حضرة الضابط !

ـ سكت بدون جواب

وكثر الأخذ والرد ، وتدخل الرفاق .. ولكن بدون جدوى ..

والانكليزي عنيد صلب المراس من الصعب اذا قال : لا .. ان تزحزحه عن رأيه ، ولا سيما اذا كان ذا بزة عسكرية وضابط حدود ، وفي منطقة حساسة ، ومع عربي يريد ان يعبر في الليل من ارض اسبانية الى ارض عربية اصبحت في منطق شريعة الغاب منطقة انكليزية !

وهكذا ، فقد حرمت من ان تطأ قدماي الارض التي وطئتها اقدام طارق بن زياد وجنوده البواسل ..

نعم ، لم يتح لي أن اقف وجها لوجه امام الصخرة التي وقف عليها طارق والقى خطبته الشهيرة التي غيرت وجه التاريخ . فقد اصبح العربي يحرم ، وبالرغم من صحة الاجراآت القنصلية من التجوال في الارض المجبولة بدم اجداده الميامين !

وعدت اهجس هواجس غريبة ، وقد بتّ ليلتي ، علم الله ، مقرّح الاجفان ؛

واخذت استعرض قصة هذه الصخرة الحصينة التي تحمل اسم البطل العربي قصتها اليوم وقصتها في الماضي ..

اما اليوم فهي تشكل مشكلة خطيره بين انكلترا واسبانيا التي تعتقد أن الجبل قطعة من اراضيها وان احتلال انكلترا لها غير شرعي . فلا تكاد تثور ثائرة الاسبان حتى تخمد .. أما الانكليز فلا يحركون ساكنا وتظل آذانهم صماء عن سماع كل ضجيج ولغط ما داموا مسيطرين سيطرة محكمة ..

فحين قامت ملكة انكلترا بزيارة جبل طارق والقت السفينة مرساها عند الصخرة الحصينة احتجّ الاسبانيون وأبدوا استياءهم المرير واحتجاجهم العنيف

بمختلف الطرق الرسمية والشعبية .. ولكن هل أفاد ذلك شيئاً ؟ لقد ذهبت صرخات الاستياء وصيحات الاحتجاج ادراج الرياح !

ونعود الى الماضي البعيد نستقرىء تاريخ هذه الصخرة الصغيرة الحجم الكبيرة الأثر في السياسة الدولية

كان الاغريق والرومان يدعون هذه الصخرة « اليـــبي » وينعتونها بـ(أعمدة هرقل) المشهورة التي كانت النهاية الغربية لنشاط دول البحر الابيض البحرية . .

ولما تغلب العرب على قوات القوط سنة ٧١١ م ، بعد قتال مرير استمر ثلاثة أيام ، اتخذت الصخرة اسمها الحديث من القائد العربي طارق بن زياد الذي أمر على الفور بتحصين هذا الموقع الذي ظل بيد العرب ثمانية قرون . .

وفي سنة ١٣٠٩ م استرد الاسبان جبل طارق .. ثم انتزعها العرب منهم بعد ثلاثين سنة .. وعاد الاسبانيون ، بعد هذه الفترة فاستردوها سنة ١٤٦٢ م .
وفي سنة ١٧٠٤ انتهزت انكلترا فرصة اشتباك اسبانيا في نزاع لها مع النمسا فاستولت على جبل طارق بالاشتراك مع هولندا ، ولحساب النمسا وباسمها ..

ولكن ما لبثت ان نقضت عهودها ونسيت وعودها .. شأنها في جميع العهود والوعود التي تقطعها بعد ان تقسم بشرفها !

وهكذا ، انفردت بالقلعة واعلنت ضمهـا الى املاك التاج البريطاني ـ تاج الملكة آن الانكليزية ورفعت عليها العلم البريطاني الذي لا يزال يخفق عليهـا حتى الان .

وقد بذلت اسبانيا محاولات عديدة لاستردادهـا فذهبت محاولاتهـــا بدداً . .

ولما كانت اولى تلك المحاولات بمدسنة اشهر من احتلال الانكليز للصخرة ، ولما فشلت المحاولة الاولى لجـأ الاسبان الى المفاوضات السلمية فماطلت انكلترا وراوغت وكسبت الوقت حـتى عيل صبر اسبانيا بعد ست عشر سنة من

مفاوضـات سلمية ، فأعادت أسبانيا الهجوم عليها سنة ١٧٢٠ م ثم سنة ١٧٢٦ م ولكن دون جدوى ..

وفي سنة ١٧٧٩ م انتهز الاسبان فرصة اشتباك الانكليز مع الاميركان في حرب الاستقلال الاميركي وقاموا بأكبر محاولة حربية لاسترداد جبل طارق ، فحاصروها الحصار العظيم وهاجموها براً وبحراً مدة اربع سنوات ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، واضطروا الى رفع الحصار في شباط سنة ١٧٨٣ . .

واعاد الاسبان الكرة سنة ١٨٠١ بمعـاونة الافرنسيين دون ان يظفروا بنتيجة ..

وما تزال هذه الصخرة المنيعة منذ تلك الفترة الطويلة والى يومنا هـذا ، تحت السيطرة البريطانية ولا يعلم الا الله متى تزول هذه السيطرة ومتى ينكس العلم البريطاني الذي أخذ يلملم اطرافه من الكثير من الاقطار التي كانت شمس بريطانيا لا تغرب عنها . .

والصخرة ، تزداد قوة وتمكيناً بما بنـوا في الجبل من الحصون ، وبما حفروا من الانفاق ، وبما اسسوا من المرافيء وردموا من البحـر ، وبما حسنوا اجمالا في اسباب الحياة المدنية والعسكرية ، وفي اسباب المناعة البحرية ، فغـدت اخصن الحصون واعزها في العالم ، وظلت كذلك حتى عهد السلاح الجوي الذي نحن فيه ..

* * *

ولنترك ، بعد هذه الالمامه ، قصة النزاع على ملكية جبل طارق بين الاسبان والانكليز ، ولنعد الى تاريخ العرب في تلك المنطقة..

كيف عبروا الى اسبانيا ؟

كيف افتتحوا تلك المناطق الحصينة الوعرة ؟

بأي سلاح اندفعوا

وبأي عتاد زجّوا أنفسهم في هذا المعترك الشائك ؟

اريد ان اعتقد قبل ان نوجز مراحل هذه القصة ، ان سلاحهم الأوحد كان الايمان .. ولا شيء غير الايمان .

• • •

فبعد ان بسط العرب سلطانهم على شمال افريقية بقيادة موسى بن نصير تطلعوا الى البلاد الواقعة على الضفة الاخرى من مضيق جبل طارق .

وقد خشي موسى بن نصير من مغامرة قد تضيع عليه ما كسب من نصر، وربما تقذف بجيش المسلمين في مصير مظلم قد تكون نهايته ضياع الثمرات الحلوة التي جناها المسلمون بقوة ايمانهم .

وبينما هو في هذا الموقف يبحث الموضوع من شتى نواحيه تقدم اليه يوليان حاكم سبتة وعرض عليه تسليم سبته ، ثم المساعدة في فتح اسبانيا ثانياً .

وكانت سبتة ولاية افريقية تابعة للقوط ، يحكمها من قبلهم حاكم ..

وكانت الى ذلك حصناً حصينا من الحصون الافريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد ، كما كانت ثغرا له قيمته على مضيق جبل طارق يمكن ان يستخدم في العبور الى جنوب اسبانيا ..

اما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخي على موسى فللمؤرخين في الاجابة عليه اقوال عديدة ترجع في جملتها الى ضغائن بين يوليان هذا ، وبين ملك القوط حينئذ المسمى رذريق.

وهي ضغائن تمس المروءة والعرض والشرف ، الى نزعة الملك والسلطان

ومؤدى هذه القصة انه كان من عادة امراء الفرنجة في العصور الوسطى ان يرسلوا ابناءهم وبناتهم الى قصور الملوك لكي ينشأوا فيها نشأة ممتازة ، ويتشبعوا بتقاليد وثقافة هذا الجو المترف الذي نشرته الاسر الحاكمة من حولها حتى اذا مضى الفتى والفتاة بضعة اعوام عاد الى مقر ابيه مطبوعا بطابع الحياة التي خلقها في مقر المليك .

وكان الكونت يليان تابعا لملك اسبانيا رذريق الذي اختار حماية امبراطور بيزنطة لبعد هذا وقرب ذاك من بلاد سبتة .

ولما كانت لهذا الكونت فتاة صغيرة اسمها فلورندا رأى ان يسير بها سيرة الامراء فأوفدها الى قصر رذريق في طليطلة لتنشأ هناك .

وكانت الفتاة على حظ كبير من الجمال ، فمال اليها رذريق واحتال عليها حتى اغتصبها ،

ولم يكن هذا الحادث الفاضح مألوفا في تقاليد القصور ، اذ كان على الملك ان يصون فتيات الامراء في قصره كما يصون بناته هو ..

وقد احتالت فلورندا حتى أبلغت اباها النبأ المشين .

وهنا ثارت ثائرة يليان ، ولم يجد سبيلا للانتقام الا ان يتحالف مع العرب سراً لكي يغزوا اسبانيا ويزيلا روذريق الملك النذل عن عرشه .

هذا هو مؤدى القصة كما جاءت في رواية الكثير من المؤرخين الذين عرضوا لتاريخ الاندلس . بعضهم يرويها بتحفظ وبعضهم يثبتها على علاتها ، وبعضهم يثبتها دون الاطمئنان الى صحتها كما اوردها لين بول في تاريخه .

ومهما يكن من أمر فقد وحب موسى بهذا العرض ، وارسل طريف بن مالك أحد محاربيه الشجعان على رأس قوة صغيرة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ فارس عبرت المضيق على اربع سفن قدمها حاكم سبتة ، ونزلت في جنوب شبه الجزيرة بمكان لا يزال يحمل اسم القائد المسلم الى اليوم حيث يسمى جزيرة طريف ثم عادت تلك السرية الى شمال افريقيا مما طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد .

وكان عبور هذه السرية الى جنوب اسبانيا سنة ٩١هـ ٧١٠ م .

هذا، ونعتمد على صاحب نفح الطيب في رواية طرف من هذه الاحداث ، فقد يكون اصدق من يرجع اليه في بسط حوادثها :

يقول المقري :

عقد موسى لطارق ، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالي وليس فيها عرب الا القليل ووجه معه يليان فهيأ له يليان المراكب . فركب في اربع سفن ، وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم السبت في شعبان سنة اثنين وتسعين ، ثم صرف المراكب الى من خلفه من اصحابه فركب من بقي من الناس ولم

نزل السفائن تختلف اليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل.

ولما تكامل هذا الجيش الصغير تحت امرة طارق وقف في سفح الجبل ، وخطب جنده قائلاً :

ايها الناس

اين المفر ؟.. البحر من ورائكم، والعدو امامكم، وليس لكم والله الا الصدق والصبر

واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة ،وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم، ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم،ولم تنجزوا لكم امراً ذهب ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذه الطاغية.. فقد القت به اليكم مدينته الحصينة . وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . واني لم احذركم امراً انا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس ابدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالأرفة الالذ طويلا ـ فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفر من حظي وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ،والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان،وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا، للملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان ،واستماحكم لمجالدة الابطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه. واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى ..

فاحملوا معي ،فان هلكت بعده فقد كفيتكم امره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه .

واحملوا بانفسكم عليه ، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم

بعده يخذلون..»

• • •

أي سحر تركته كلمات طارق في نفوس جنوده ؟

لقد اثارتهم وكهربتهم وأشعلت جذوة الحماسة في نفوسهم .

وضع جنده بين امرين لاثالث لهما : الحياة أو الموت ، ولم يضع طارق نفسه في مؤخرة الصفوف بل كان في المقدمة ..

انه لم يحذرهم امراً هو بنجوة عنه ..

ولا حملهم على خطة لم يباشرها بنفسه ..

بل كان في طليعة من استجاب الى ما دعا اليه ..

فما كادت تدور رحى المعركة حتى كتب فيها النصر . وكانت اولى الخطوات التي مكنت للعرب وللقادة من بعده ، ان يتابعوا نفس الخطة في فتح تلك الاصقاع .

وهكذا ، فقد كان لهذه الخطبة التي ألهبت ضمير الجنود وأثارت في نفوسهم الحماسة التي جعلتهم يستعذبون الموت في سبيل حياة خالدة ـ كان لهذه الخطبة التاريخية اثرها البليغ في تاريخ الفتوحات : واستطاعت بما ابداه قائدها من شجاعة وبطولة ـ ان تغير لفترة طويلة من الزمن ـ وجه التاريخ .

من قادس الى اشبيلية

عروس المدن الاسبانية

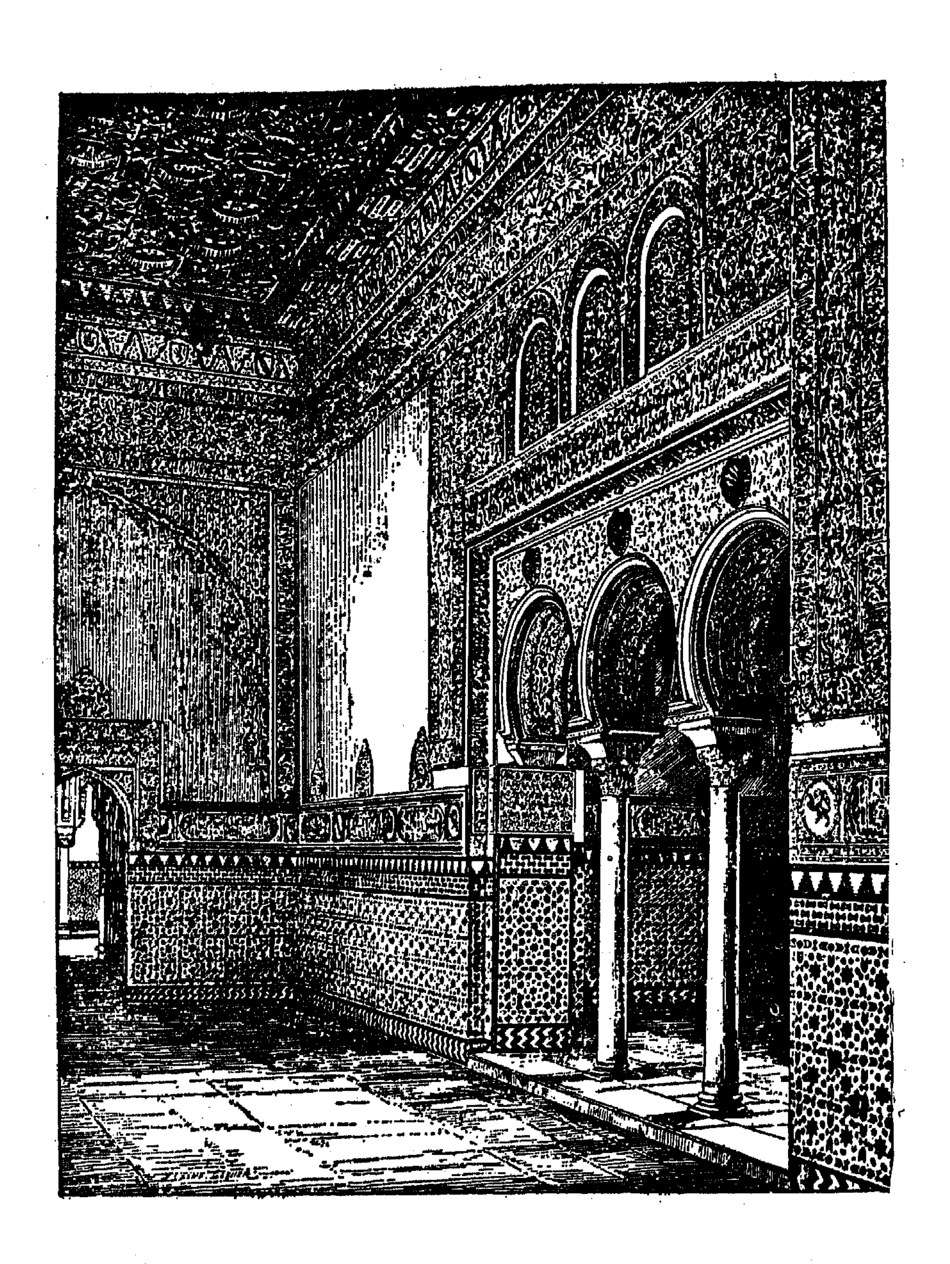
١٩٥٤/٢/٢٨

كان الشوق يجتذبني اليها كما اجتذبتني غرناطة ،ولا غرو في ذلك فلاشبيلية ذكر طويل في تاريخنا الادبي .

دخلناهــا قبيل مغرب الشمس فمررنا بحديقتها الكبرى ، وبالشارع الرئيسي الذي تزدان جوانبه بالاشجار الباسقة .. ثم اتجهنا الى فندقها الكبير - فنـــدق الفونس الثالث عشر - وهو من أعظم فنادق اسبانيا ، يدهشك بطرازه الكلاسيكي وجوه الاوروبي والطابع العربي الذي يمدّ ظلاله على الكثير من غرفه وقاعاته . . بعد أن أخذنا قسطنا من الراحة ، وبعد ان تناولنا عشاءنا قضينا السهرة في مرقص يعرض الرقص الاسباني بشتى لوانه .

وكنا في شوق ملحّ لأن نرى الوان هذا الرقص في الارض الاسبانية وفي اشبيلية ، بصورة خاصة ، منبع هذا الفن المثير .

وكانت ليلة نعمنـا خلالها بمشاهدة أجمل الرقصات الاسبانية- الرقص الذي يدور على نغمات القيثار وعلى طقطقة الكستاليا والذي يمثل أعنف مطارحات الحب في خفة وغنج ورشاقة ..



بهو ملوك المغاربة في قصر اشبيلية



لقد نمت نوماً هادئاً بعد سهرة طالت حتى الثالثة صباحاً اكتحلت عيناي فيها بأروع ما قدمته فرقة اسبانية شهيرة من رقص اندلسي عريق .

• • •

وفي اليوم الثاني قمنا نجول في هذه المدينة الكبيرة التي تقع في واد متسع على الضفة الكبرى من النهر ــ نهر الوادي الكبير .

واشبيلية أو سفيللا Sevilla كما هي عند الاسبانيين يشتق اسمها كما يقول المؤرخون ، من الاسم القديم اسبالس Hispals وقد اطلق عليها في العهد العربي اسم « حمص » لانها كانت ، عند تقسيم الاندلس ، من نصيب جند حمص انزلهم فيها عام ١٢٥ هـ العامل ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي .

ولا أريد ان اعرض الى تاريخها فحسبي ان اسجل بعض الانطباعات التي تركتها هذه الزيارة الخاطفة ، ثم اعود الى تدوين بعض ما تميزت به من ظواهر في العهد العربي المشرق ..

• • •

جاءنا الدليل صباحاً يرسم منهاج الرحلة ..

قال سنبدأ بزيارة « الكازار » يريد القصر ـ القصر الملكي القديم الذى لا يزال يحتفظ باسمه العربي Al - Cazar

وقد أخذنا طريقنا اليه ، فما كدنا ندخل ساحته وباحاته وندخل غرفه وابهاءه حتى شعرت بالاعتزاز المشوب بالألم ..

ويتألف القصر من طابقين : أما الطابق السفلي فهو القصر القديم .. وأما العلوي فقد امر ببنائه الملك فيليب الثاني الذي حرص ان يكون على نمط الطابق السفلي .. ولكي يتم التناسق استدعى مهرة المعمارين وطلب اليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم ليكون الفرع كالاصل ، وحرص ان تزدان جدرانه بالنقوش العربية والآيات القرآنية .. وبالرغم من الجهد الذي بذلوه ظلت نقوش الطابق السفلي وزخارفه وكتاباته القرآنية واشعاره ذات اصالة عربية تمثل عبقرية

العرب القدامى رغم تقادم العصور ..

أكان هذا القصر قصر ملوك بني عباد ؟

وأن قصائد ابن حمديس وابن زيدون وابن عمار وغيرهم وغيرهم كانت تتردد على مسمع المعتمد الذي جعل من قصره بيئة تزدهر بفنون الادب والشعر تماماً ، كما كان بلاط سيف الدولة يعج بأكابر الشعراء والادباء والفنانين والفلاسفة ..

أكاد اوقن ذلك .. لولا أن الرواية التاريخية تقول ان هذا القصر بني في عهد يوسف الثاني المستنصري الموحدي ، وقد شيده عامله ابو العلاء عام ٦٤٧ هـ كما شيد الى جانبه برجا على ضفة الوادي الكبير لحماية النهر ..

ولا اتوسع هنا في ملوك بني عباد الذين لعبوا دوراً في تاريخ هذه المنطقة فحسبي الالماع .

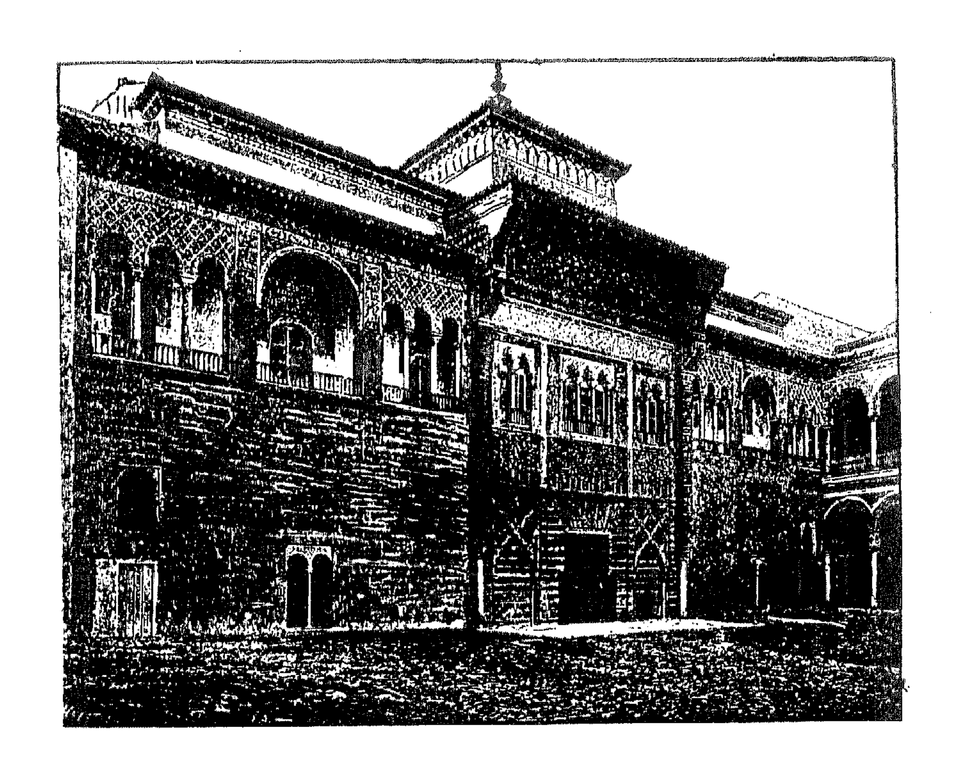
• • •

بعد أن طفنا في أرجاء القصر واستمتعنا بجمال زخارفه خرجنا لنتجول في حديقته الكبرى التي لا تزال تحتفظ مقاعدها بالطراز العربي والتي اصبحت حديقة يؤمها الناس صباح مساء يستروحون نسماتها العليلة ويتفيأون ظلالها الجميلة .

من القصر وحديقته الى السوارع والمنعطفات المحيطة بالقصر اخذنا نتجول سيراً على الاقدام .. كنا ندخل بعض البيوت التي يحرص الاسبانيون ان يتركوها مفتحة الابواب ليتفرج السواح على داخلها .

ومما يلفت النظر رحابة باحات البيوت ، أي صحن الدار ذات الجدران العالية ، كما يلفت النظر ضيق الازقة كما كانت في الماضي ، وأن دلّ هذا على شيء فعلى ان عرب الاندلس كانوا يهتمّون بالباطن اكثر من اهتمامهم بالظواهر ..

كنت ادخل بعض البيوت فأشعر كأني في بيوت حلب القديمة التي لاتزال



واجهة القصر في اشبيلية



تحتفظ بصحن الدار وبالحوض الذي تنفث من نافورته المياه وتقـوم على حفافيه أُصص الزهر ، وبالايوان والارائك التي تحتل صدره وجوانبه وقد ازدان بالفوانيس والقناديل .

ان أثر العرب باق في الكثير من مظاهر الحياة ـ في الطبـاع والامزجة والعادات والتقاليد .

• • •

لقد أحبّ الدليل ونحن نخترق هذه الازقة والمنطفات وندخل بعض البيوت متفرجّين - احب ان يفاجأ السواح الاميركان الذين دهشوا لطراز هذه البيوت التي تختلف كل الاختلاف عن طراز بيوتهم ومساكنهـم - أحب أن يفاجأهم بزيارة بيت ولدت فيه نجمة من نجوم هوليود يعشقها الاميركان وتحتل من نفوسهم مـكانة كبرى ، فما كدنا نخطو بضـع خطوات حتى وقف امام دكانة لبيـع الفطائر الاسبانية فدخلناها وهي اشبه بقبو على سطح الارض ،فاستقبلنا شيـخ في الثمانين من عمره امتاز بصنـع المعجنات .. ولم نفهم المغزى من هذه الزيارة الاّ ان يكون هـــذا الشيخ هو أب الدليل فأراد اكرامه بابتياع فطائر ... ولم يتركنا في حيرتنـا فسرعان ما أعلن لنا أن البائع هو جدّ الممثلة الفاتنة ريتا هوارث زوجة علي خان واننا في البيت الذي ولدت فيـــه ـ في بيت كانسينو Cansino عائلة ريتـا هوارث الفاتنة التي اثارت العالم زمناً برقصاتها المثـيرة وجمالها الخلاب ..

وتهللت وجوه الاميركان وارتفـع ضجيجهم ولغطهم فانهالوا على الفطائر يأكلونها بنهم ويقهقهون !

وأخذ العجوز ، بعد ان نفقت بضاعته وازدادت غلته ، ـ اخذ يرقص مع عجوز اميركية رقصات حفيدته ، ويغني بصوت اجش اغنيات بلدية !

وانتهت الزيارة فصرخ الدليل هيا الى الكاتدرائية ..

• • •

وكنا جميعاً في شوق الى زيارة الكاتدرائية التي تعتبر من أفخم كاتدرائيات العالم . فلم نكد ندخل باحتها ونتجول في اطرافها حتى اخذ الدليل يشرح لنا ما تضمه من كنوز وما فيها من زخارف ، ساعده في الشرح أب محترم جعل مهمته ان يدلل على قوة الايمان في صدور اسلافه الآباء الروحيين الذين أثاروا في نفوس مواطنيهم روح الحرب وتخليص أرض الاجداد من ايدي «الكفار» حتى كتب لهم النصر وحوّل الجامع الى كاتدرائية !..

وقد بنيت هذه الكاتدرائية على النمط القوطي بعد أن اقيمت على انقاض الجامع الذي لم يبق منه الا مئذنته ـ المئذنة الشهيرة المعروفة بالجيرالدا ، وقد جاءت هذه التسمية من كلمة girar الاسبانية ومعناها يدور .

يقول المستشرق بروفنسال : لقد سميّت كذلك لان عليها شماراً دينياً يدور مع الريح ..

• • •

بعد جولة استغرقت ساعة في اطراف الكاتدرائية حرصت ان اصعد الى قمة المئذنة التي يبلغ ارتفاعها كما قيل لي ، ١٢٠ متراً ، فتسلقت درجها دون أن اشعر بالتعب ، اقول درجها والاصح ان اقول طريقها ، فقد بنيت بشكل مريح حتى ليقال ان المؤذن كان يصعدالیها راكباً على حصانه . ولا سيما والطريق مضيء من كثرة النوافذ المفتوحة فيها .

وقد بدت لي اشبيلية من قمة المئذنة على اجمل ما تكون عليه المدن .

هذه المئذنة التي كان يرتفع من قمتها صوت المؤذن قد استحالت برجا للنواقيس ، كما استحال الجامع الذي بني في عهد الموحدين عام ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) الى كاتدرائية ولم يبق غير صحنه الذي يعرف عند الاسبانيين باسم - Patia de ta naranjos أي صحن البرتقال ..

ومن صحن البرتقال ارتفع صوت الدليل يقول ان زيارة الكاتدرائية قد انتهت ..

وكنت في قمة المئذنة .. بل كنت في ذهول وعلى غير ارادة مني ارتفع صوتي الخافت بأذان حزين

ـ الله اكبر .. الله اكبر ..

حيّ على الصلاة .. حيّ على الصلاة ..

ولكن اين هم المصلون الذين عمرت قلوبهم بايمان اجدادهم الاولين . .

ما كدت أصل الى صحن الجامع واتنسم نسمات عبير البرتقال الذي زرعت شجيراته بأيد مباركة حتى بكيت :

لقد شممت عبيرهم .. ولكنه عبير حمل الى كل خلجة من خلجات ذاتي الألم والشجى والبكاء والانين !

اشبيلية

من كلمات ابن رشد عن اشبيلية قوله :

« اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها..
واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية »

كان وصف ابن رشد هذا على طرف لساني وأنا في طريقي الى اشبيلية ..
فلم اكد اصل اليها في السابع من شهر شباط سنة ١٩٥٤ حتى رأيتني ، بعد أن وضعت حقائبي في الفندق ، اسير في شوارعها واسواقها على غير هدى .. وما كدت اغوص في تلك الملتويات حتى اجتذبني شارعها الرئيسي ـ ولا اذكر اسمه ـ وهو قريب من الحديقة الكبرى .

ولأشبيلية طابع خاص ، فهي مدينة الفن والطرب .. وكان اجدادنا الاقدمون يرونها عروس بلاد الاندلس ولا يتحرجون ان يقولوا انها اجمل مدن الدنيا .. وقد يكون هذا القول شبه صحيح بالامس .. أما اليوم فحسبك ان تقول انها مدينة وادعة مشرقة ، تعيش في جو بهيج من الحب والرقص والغناء.. فيها ما في الكثير من المدن من مظاهر تسر الناظرين ..

وفي اهلها ميل الى المرح والطرب والسرور ، وقديما وصفها أحد ادباء الاندلس بقوله : ويضرب باهل اشبيلية المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرص الزمان

الساعة بعد الساعة ،

وكأنما هذه السجية لم تتبدل منذ الازل .. وانا محدثك عن هذه الظاهرة التي رأيتها رؤية العين .

ففي شارعها الرئيسي الذي يغص بزمر النـاس ، والذي تنتشر على جوانبه البيوت والمخازن والمقاهي والكنائس والكاتدرائيات .. وفي الفـترة التي تمر بين عتمة المساء وانبلاج الاضواء تشاهد على رصيفي الشارع صوراً خلابة من هذه المعارك التي يحتدم اوارها بين الشباب والشابات ـ معارك تثور فيها العواطف وتهيج المشاعر وتتراقص الاجسام وتحدق العيون وترن الضحكات ..

يطارد الشباب الرائحات الغاديات .. وقد ينصبون لهن الشباك فـلا يكدن يقتربن من شباكهم حتى ينفرن ضاحـكات مترنحات وقد يصرعن بالحاظهن وغنجهن غير مباليات .

شهدت مطاردة من مطاردات الهوى والشباب .. وقد دهشت ـ وهنـا لب القصة ـ دهشت لجرأة شاب يسير مع صحبه شبه مترنح .. لم يكـد يقترب من سرب فتيات كالورد حتى اختطف قبلة من احداهن .. اي والله .. اختطـف قبلة من فتاة ريقة الصبا تسير مع لداتها الفاتنات .. وسار في نشوة عجيبة كأنه خرج من المعركة ظافراً، ثم تلفت ليرى الأثر الذي تركته قبلته .. فلم يسمع غـير رنين الضحكات .. وكأنه لم يقترف اثما ولم يأت امرا ادّا ..

ولم تثر الفتـاة .. ولم تغضب .. ولم تستنجد بالشرطي .. بـــل تورد خداها وسترت خجلها او فرحتها لا ادري بضحكة رقيقة ناعمة .. ثم تضاحكت مع رفيقاتها ـ تضاحكن مزهـوات .. وربما حسدنها او غبطنها لهذه النعمة الـتي حرمن منها .

القبلة رمز الاعجاب والمحبة

ولا ضير ان يطبع الشاب قبلته الخاطفة على خد الفتاة .. فقد تكون هذه القبلة هي الطريق الممهد للزواج وللسعادة الازلية

وتكرر المنظر

وشهدت فصول هذه الرواية العاطفية تمثل امامي على مرأى من الناس دون لعلعة الرصاص ودون وقوع الجرحى والقتلى - الا جراحات القلوب التي تدميها سهام العيون .

انه مشهد من فصول رواية تحمل في اطوائها ومناظرها المثيرة قصص الحب العنيف .

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

ولكن لا . . ان الفتى الاشبيلي ينكر هذا الدستور الرتيب الذي خطته عبقرية شوقي للحب . انه في عصر الذره .. يريدان يطوي مراحل النظرة الآكلة والابتسامة المزية والتحية الندية والكلام المعسول بقبلة حارة .. انها اقصر طريق للموعد فاللقاء ،او للحياة الزوجية اذا لم يرد العبث .

ان فتاة اشبيلية صورة جميلة من صور الحياة العارمة المليئة بالوجد والبهجة .. انها بقدها المشوق .. بخطواتها الرشيقة . . بضحكاتها التي ترن كالبلور . . بخدودها الموردة . . وبالتفاتها التي تنهب القلوب - انها فتنة للناظرين ..

ومظاهر التحية - اريد هذه القبلة الخاطفة - هي التي لفتت نظري ..

انها لا تشبه قبلة الباريسيات التي يكمن في صميمها الحب والعهر والخنا اريد القبلات التي تتوزع على قارعة الطرق وفى الحدائق وعربات الترو وفي كل منطقة مكشوفة لا . . فقبلة شباب اشبيلية هي قبلة الاثارة -القبلة الخاطفة التي ترمز الى تقدير الجمال - قبلة اللهو البرىء والود الخالص

من هذه الفتاة الاشبيليه التي حامت حولها القلوب وطمع الشباب والعابثون اكثر من قبلة على خدها المورّد وخدود لداتها الفاتنات ؟

اتكون حفيدة ولاّدة !

ايكون هذا الشاب العابث حفيد ابن زيدون !

لقد وددت ان ارجع من الكهولة الى الشباب لأمرّ بهذه التجربة .

ولكن لا .. فما زال فينا ، ولو عدنا الى عهد الشباب ـ ما زال فينا بقية من حياء ..

وقد رجعت بي هذه القبلات ، يخطفها الشباب من خدود الاشبيليات رجعت بي الى عهد اديبة الاندلس ولادة بنت المستكفي بالله التي لم تتحرج ان تطرز على عاتقي ثوبها البيتين المشهورين :

انا والله اصلح المعالي وامشي مشيتي واتيه تيها
وامكن عاشقي من لثم خدى واعطي قبلتي من يشتهيها

نعم ، رأيت حفيدة ولادة تعطي قبلتها لمن يشتهيها

ثم سارت في طريقها تثير الضرام في قلوب العاشقين

كنت زائغ البصر .. ورجعت الى الماضي .. والعربي ، في الاندلس لا يستطيع ان ينسى ماضي فردوسه المفقود .

ذكرت ولادة .. معشوقة ابن زيدون .. ذكرت حبها العنيف .. وصالونها الادبي المنيف .. وتهافت الشعراء والادباء على التغزل بها ، والاستمتاع بحلو حديثها .. والتنعم باشراق جمالها .

وقصتها مع ابن زيدون .. ومع ابن عبدوس .. ومن حام حولها من الادباء والشعراء تفوق في عنفها قصص جورج ساند وقصص الكثيرات ممن اشتهرن بالحب .

كانت ولادة امرأة نهمة .. أحبت الرجال واحبت النساء .. وقد عاشت حياتها في جو البذخ والترف .. وفي المرح والمجون

وربما كانت قصتها ـ قصة الكثيرات ممن يعطين لاهوائهن العنان دون حرج

ورثت عن ابيها المستكفي بالله الكثير من خصائص لهوه ومرحه .. ولم تكن سيرة ابيها سيرة عبقة ـ فقد اجمع المؤرخون على ان المستكفي كان بين خلفاء الاندلس الوحيد الذي ازدرى بشئون المملكة فانغمس في ملذاته واطلق العنان لشهواته . وهذا الذي دفع الشعب ان يثور عليه ، وان ينهب قصوره فاختفى في ضاحية عند امرأتين ـ ربما كانتا من جواريه وخليلاته ـ ، ومع ذلك فلم ينج من الهلاك ودس له أحد الضباط السم فمات .

وصفه أحدمعاصريه بقوله كان المستكفي بالله ربعة أشقر، أزرق، أشم، مدور الوجه واللحية، ضخم الجسم، كبير البطن، صاحب اكل وشرب وجماع »

الا تنطبق هذه الملامح على الملك فاروق ؟

وقد تزوج المستكفي اكثر من امرأة واحدة .. عربيات واسبانيات.. وكانت زوجته الاخيرة امة اسبانية وهي بنت سكرى الموروته .. ويذهب بعض المؤرخين الى أن هذه الاسبانية هي أم ولادة ..

ورثت ولادة الشيء الكثير عن ابويها .. فثارت على تقاليد المجتمع .. ونزعت عنها الحجاب.. وفتحت قصرها للعظماء والادباء والشعراء والفنانين.. وكان للكثير من الخصائص التي تميزت بها من جمال وثقافة وثروة ما جعلها مرموقة في المجتمع الاندلسي، وقد وصفها عبدالله بن مكي، وكان ممن يتردد على صالونها الادبي بقوله « كانت واسعة الثقافة، غزيرة العلم، وبخاصة في فنون الشعر والادب، مما اتاح لها مساجلة الادباء ومطارحة الشعراء ومناظرة العلماء »

وغير ابن مكي كثيرون كالمقري وابن نباتة وابن بسام الذي كان يقول عنها « ويعشو اهل الادب الى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها »

وما من أديب عاصرها وعاش فترات ينعم بادبها ويحضر مجالسها الا قال فيها شيئاً .. وهذا ابن خاقان الاديب الوزير يقول « كانت من الادب والظرف وتنغيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والالباب وتعيد الشيب الى الشباب »

وذكر احدهم بأنها كانت عذبة الصوت وذات صنعة في الغناء ..

وهذا الذي جعل قصرها يعج بكل ذي موهبة .. وكان في طليعتهم ابن زيدون الشاعر الاديب الوزير الذي احبها واحبته وقال فيها الشعر والنثر وتبادلا ارق العواطف .. وكانا يتطارحان الهوى ويجتمعان في غفلة من عيون الرقباء فاذا ما التقيا كان ذلك في الليل .. فحين مهدت لاول لقاء كتبت اليه محترسة حذرة تقول :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل اكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح　　وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وكان اللقاء، وتمتعا بأفاويق الحب .. ولكن مثل هذه العلاقة لا يمكن ان تظل سراً .. ولا سيما وقد نظم ابن زيدون الكثير من القصائد والمقطوعات معبرا عن عاطفته الجياشة الملتهبة .. وكانت صلته بها جد وثيقة .. واذ كان لكل علاقة من علاقات الحب نكسة ، فقد اصيبت ولادة بنكسة جد قوية ـ نكسة جرحت عاطفتها وثلمت كبرياءها وكرامتها .

ويظهر ان ابن زيدون كان من اولئك العشاق النهمين الذين يحبون المرأة للمتعة ، كان شاذاً في ميوله الجنسية، وكان يلتمس الشهوة العارمة سواء أجاءت عن طريق الحب ام عن طريق اللذة ولا شيء الا اللذة .. فقد احب جارية ولادة وكانت جارية سوداء ، فسبق بودلير في الشذوذ .. ولم تكد تشعر ولادة بهذا التحول حتى غضبت وثارت .. هجرته وتحولت الى خصمه وعذوله ابي عامر بن عبدوس .. وكتبت الى ابن زيدون معاتبة مغاضبة

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا　　لم تهو جاريتي ولم تتخير

وتركت غصنا مثمرا بجماله　　وجنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمت بانني بدر الدجى　　لكن دهيت لشقوتي بالمشتري

وهذا الشذوذ دفعها ان تسير هي في نفس الطريق .. فمن مباذلها انها احبت مهجة بنت التياني القرطبية ، وكانت من اجمل نساء زمانها واخفهن روحا ، فعلقت بها ولادة ولزمت تأديبها الى أن جعلت منها شاعرة مرموقة .. ولكن هذه الصلات لم تدم وانقطع ما بينها بل انقلب الحب الى بغض، والمودة الى كراهية، والصداقة الى عداوة ،وكانت مهجة طويلة اللسان فهجتها ..وتذكر كتب الادب ابياتا في الهجو لا يجسر الرجل ان يقولها .

وهكذا ، فقد كان في حياة ولادة مفارقات عجيبة . وكان لهجرها ابن زيدون اثر في نفسه . وحياة ابن زيدون سلسلة متماسكة من الامجاد والمتاعب .. من الوزارة الى السجن .. ومن الحب الى النفي .. وليس هنا مجال الحديث عن ابن زيدون الذي ظل ، في جميع مراحل حياته، يحمل لولادة اصدق حب واجمل

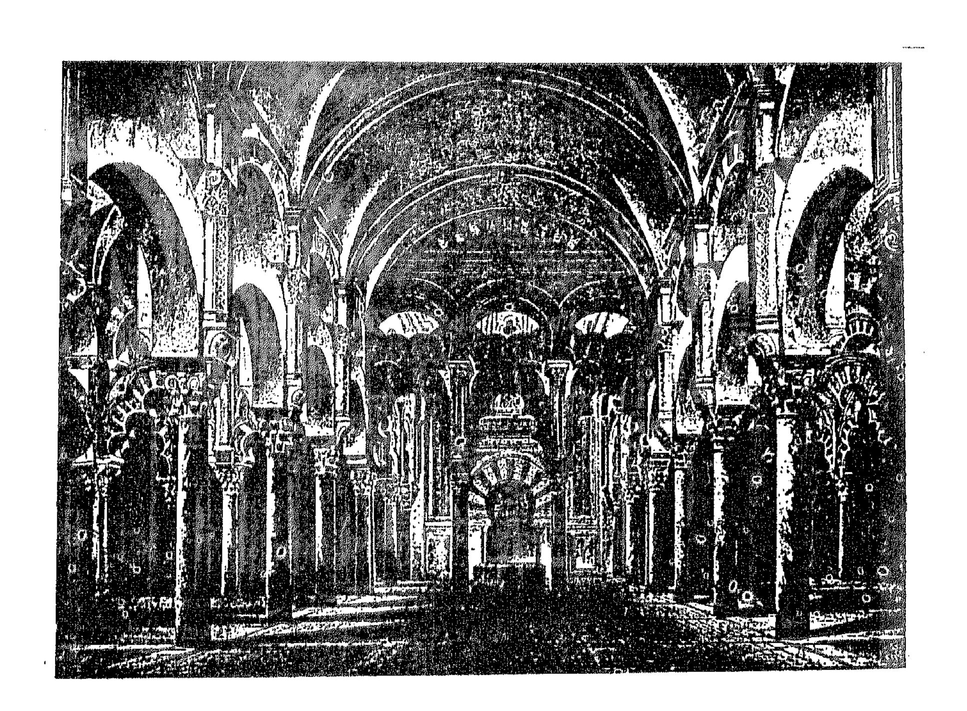
عاطفة ، وكان يرسل اليها القصيدة تلو القصيدة ، مستغفراً عن فعله .. ولكن هيهات .. فقد تنسى المرأة كل شيء ، وتصفح عن كل زلة ، وتغفر لمن اساء اليها مهما عظمت الاساءة الا من يجرح عاطفتها ويمس كبرياءها ويبدل حبها بحب امرأة أخرى ،ولعل اجمل قصائده التي تعتبر من اجمل قصائد الحب التي نظمها شعراء الاندلس ـ قصيدته « النونية » التي يتشوق بها الى ولادة ويدعوها الى اللحاق به، ويذكر معها ايامه ولياليه :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم ايامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

نعم ، في اشبيلية ، وعلى ضوء تلك القبلات التي كان يخطفها الشباب خطفا من خدود الاشبيليات تراءت لي ولادة .. وعلى غير وعي مني كنت انشد في ذلك الشارع المزدحم الشطر الاخير من بيتيها الشهيرين

ـ واعطي قبلتي من يشتهيها ـ

لقد رأيت الفتاة الاشبيلية،حفيدة ولادة ـ تعطي قبلتها للفتى الاشبيلي دونما حرج، بل في جو من الضحكات التي تملأ الشارع الكبير كأنها موسيقى مثيرة تنقلك الى عوالم من دنيا المباهج واللذاذات !



داخل جامع قرطبة



إلى قرطبة

٩/٢/ ١٩٥٤

أي نشوة خالجتني حين أخذنا نطوي الجبال والأودية ، طياً سريعاً الى قرطبة المدينة التي تعتبر من أعظم مدن الاندلس وأحفلها بتاريخنا الحضاري .

وما الاندلس ، في الواقع ، غير مدنها الكبرى ـ غير غرناطة واشبيلية وقرطبة التي كانت خلال ثمانية قرون مسرحا للكثير من الاحداث السياسية والعمرانية والحضارية فتركت آثاراً ما تزال تنطق بعبقرية العرب في الخلق والابداع والانشاء رغم تعاقب القرون ، وكانت قرطبة في طليعة تلك المدن الكبرى .

بعد أن قطعنا الكثير من السهول والأودية والجبال بدت لنا قرطبة بوجهها المشرق .

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدر بين زبرجد مكنون

لم أكد اتبين بعض معالمها حتى طلبت من السائق ان يسرع الخطى . وكلما اقتربت منها ازداد شوقي للقائها أكثر ..

اننا نشرف عليها من عل ..

وقد بدت لي من قريب كأنها مدينتي المحببة .. نعم ، بدت لي قرطبة كما تبدو لي مدينة حلب حين أعود اليها بعد سفرة بعيدة ..

ان لقرطبة في ذهني أجمـــل صورة ، فما كدنا ننحدر من جبالها الاشم الى سهولها الباسمة حتى شعرت شعور من تتحقـــق له اعذب امنية حلم بها طويلا ..

كان الدليل في شبه غفوة ، فلم نكد ندخل تخومها حتى هزه السائق هزة عنيفة واذا به يستيقظ ، وسرعان ما أخذ يثرثر ، بصورة عفوية ـ بهذه الكلمات والجمل التي طالما انسالت على اطراف لسانه يقرع بها آذان الآف السائحين ..

أخذ يحدثنـا عن ماضي قرطبة المشرق ايام العرب ، عن جامعهـا الذي سنزوره قريباً .

اننا نمر من فوق جسرها الذي لا يزال يحتفظ بطابعه العربي . . وها هي ذي طواحين الهواء تتراءى لنا وقد اقيمت في المزارع والحقول .

ويسير السائق ببطء
ونلتفت يمنة ويسارا

والدليل ماض في ثرثرته . . يعيد ويكرر نفس الجمل والعبارات التي طالما رددها يقظان نائما ...

ويشير الى كل ساحة ومبنى ، والى كل متجر ومصنـع ، والى كل ساحة وحديقة ..

لقد دخلنـا المدينة آمنين .. واذا هي ، بشوارعها وحدائقها تبتسم بوقار وحشمة ، وكأني بها تحي زائريها تحية من يتكلف التحية . . ليست هذه التحية الصميمية التي تنبع من القلب ..

ولا اعلم السبب .. شأنها في ذلك يختلف عما هي عليه اشبيلية . .

ووالينا السير .. اننا ازاء قنطرة تعلو باباً عربياً عند مدخل المدينة ، نعبر منه الى الشارع الرئيسي ، المسمى شارع النصر ـ أيكون انتصار فرانكـو على خصومه ..؟ لا اعلم ..

وهو شارع جميل ازدان باشجار النخيل ..
الى الفندق .. فندق سيمون
لقد وصلنا شبه متعبين
اما انا فقد كنت في نشوة ، فلم تكد تحتويني قرطبـــة حتى زايلني التعب . .
اريد ان ازور كل حي .. كل بقعة .. ولا سيما البقاع العربية والآثار الاسلامية .

- ٢ -

لا نكاد نأخذ قسطنا من الراحة ونتناول غذاءنا حتى يرسم لنا الدليل برنامج الزيارة ..
والمستيكا أي « الجامع » في طليعة الاماكن التي يريدنا ان نزورها ..
وهو بغيتي الكبرى من زيارة قرطبة ..
ولهذا الجامع حديث طويل في كتبنا وفي كتب مؤرخي العالم . . انه كقطر الحراء ،يعتبر من اجمل واضخم الآثار الاسلامية التي تركها العرب ولا يزال يحتفظ الى الآن بروعتة وينطق بروحهم البناءة وبعبقريتهم المشعّة . .
سار الدليل امامنا وتبعناه نسير في هذه الطرق الضيقة والجواد الملتوية التي لا تختلف قط عن الكثير من طرق مدننا وجوا ّدها .
كان الطريق المؤدي الى الجامع واضحا كل الوضوح لكثرة الاشارات والاسهم التي وضعت وقد كتب عليها بالاسبانية « La mezquito » أى الجامع ..
ووصلنا ، فما كدنا نجتاز بابه الرئيسي الواسع الضخم الذي نصبت فوقــه القناطر الحجرية المزخرفة والبالغة الروعة والذي يبلغ ارتفاعه عشرة امتــار والمصنوع من الخشب المزدان بآيات من القرآن ـ اقول لم نكد نجتاز الباب الرئيسي الى ساحته الكبرى حتى شعرت بالاعتزاز وبالخشوع ..
ووقفت طويلا امام البــاب ، قبل ان اعبر قنطرته ، أتأمل نقوشه وافك طلاسم الكلمات .. وتفقدني الرفاق .. وصاح الدليل فتبعتهم مهرولا ..

اننا في قلب الساحة - ساحة البرتقال التي لا تزال تحافظ على اسمها القديم ، وهي ساحة واسعة ازدانت بصفوف من اشجار البرتقال تتوسطها بركة كبيرة اصبحت مياهها منهلا لابناء الحي بعد ان كانت لابناء السبيل ولوضوء المصلّين ..

والى جانب الحديقة اروقة تعلوها القباب وقد زخرفتَ اقواسها وقناطرها بالنقوش العربية والآيات القرآنية ..

دخلنا حرم الجامع دون ان نخلع احذيتنا ، وقد بدت ارضه خالية من السجاد والطنافس ، ولشدّ ما اذهلنا ، بل لشدّ ما اذهلني ان أرى كاتدرائية تجثم في طرف من قلب الجامع ..

ولبناء الكاتدرائية قصة ارجيء الكلام عنها بعد جولة في رحاب الجامع ..

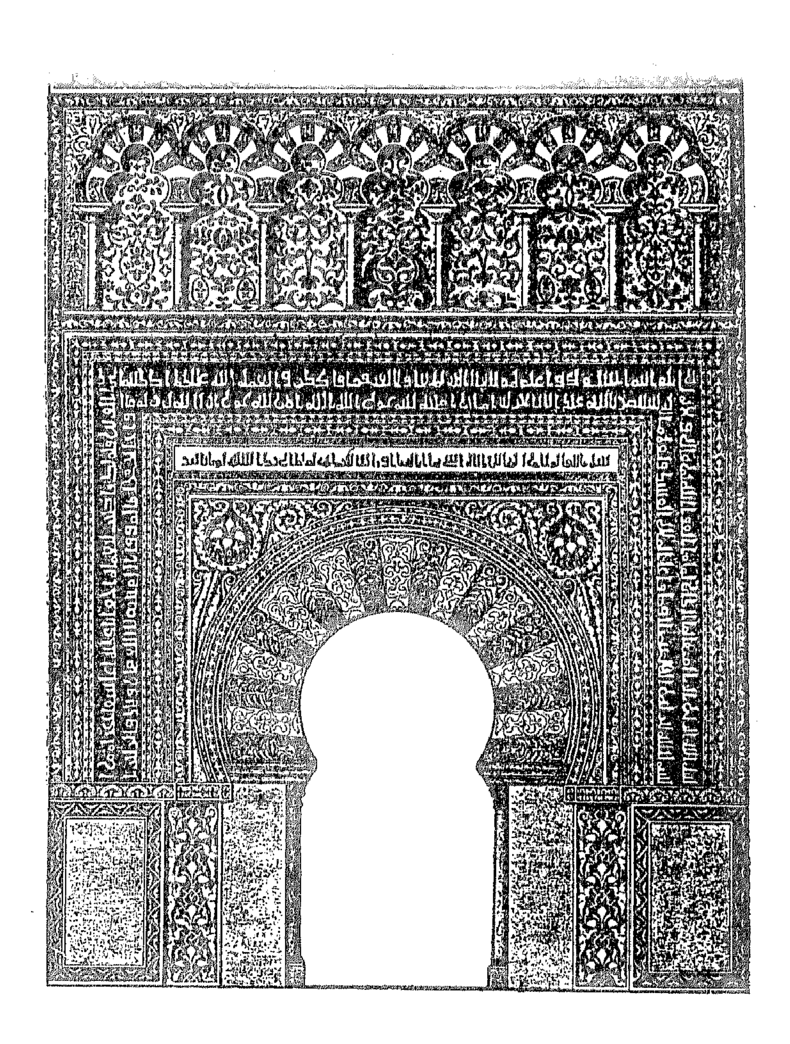
انني اسير متئد الخطى ، أتأمل هذه الأعمدة التي تذهل النظر ، فحيثما وقف الانسان يجد خطاً مستقيما من الاعمدة ، فاذا انحرف شمالا أو جنوبا ، شرقا أو غربا تراءت له نفس الاستقامة ؛ نعم ، انك لتذهل حين تقف ازاء هذه الصفوف التسعة والثلاثين من الاعمدة المنتصبة كالعرائس المراة من زينتها ، يقابلها من الشرق الى الغرب تسعة عشر صفاً من الرواق المؤدي الى المحراب ـ هذه الاعمدة الرشيقة الحزينة التي يرتبط بعضها ببعض بقناطر والتي تحمل سقفاً مزخرفاً بنقوش جميلة هذه الاعمدة البالغ عددها ألف عمود تقريباً والتي ما تزال تحتفظ الى يومنا هذا بجمالها تجملك تشعر كأنك في غابة من غابات النخيل وقد تعرضت للعواصف والاعاصير ..

. . .

اين المصلون ؟

كان اكثرهم وهم من جنسيات مختلفة . قد اتجهوا الى الهيكل ـ هيكل الكاتدرائية يركعون ويصلون ويطلبون الغفران ..

ووقفت وحدي حزيناً وتساءلت والدمع يذرف من عيني .. أين المصلون ؟



محراب جامع قرطبة



ثم رأيتني اتجه الى المحراب اصلي ركعتين لله تعالى أن حفظ للاسلام هذا الجامع الذي اقامه خلفاء بني امية رمزاً لعظمة الاسلام ولمجد العرب ..

هذا الجامع الذي يعتبر ، رغم تقادم السنين ـ آية من آيات الفن المعماري بجمال روعته ، بزخارفه ، بعمده المرمرية ـ بعقوده ، بأروقته ، بهذه النقوش التي زينت جدرانه ، بمحرابه البديع الذي لا يزال يحتفظ بجمال نقوشه وصفاء عقوده، وبريق مرامره المتعددة الالوان ..

أي محراب هذا ؟

انه قطعة فنية نادرة ..

تقف ازاءه متأملا فلا تشبع من النظر اليه . .

أي يد صناع وأي ذهن عبقري زخرف هذا المحراب ؟.

لقد ازدان بقطع الفسيفساء المتعددة الألوان والتي تبهر النظر .. الى مرمر أبيض املس ما يزال محافظاً على بريقه ، الى اقواس وعقود زبرت عليها مختلف النباتات .

ولعل أكثر ما يروق الناظر الى جمال هذا المحراب ـ الفسيفساء الخضراء ذات البريق المشع وقد ازدانت بآيات من القرآن الكريم محفورة من ذهب على صحائف متباينة الالوان من زرقاء وحمراء . .

والأعمدة الصغيرة التي اقيمت تحت القبة ما أرشقها ؟ انها اعمدة ذوات تيجان مذهبة .

على أن اكثر ما يدهش الانسان ان يرى هذه الالوان وكأن المهارين والفنانين قد فرغوا من صنعها هذا العام لا قبل الف عام !

أن جمالها يخلب النظر ،وقديقف السائح ازاءها طويلا وهو في ذهول عميق .

تصورت هذا الجامع في عهد ملوك بني امية وخلفائهم يوم كانت قرطبة من أعظم العواصم الكبرى في الشرق والغرب ، وقد بلغ عدد نفوسها قرابة المليون ، وازدانت بالقصور والحدائق والمنازل والمدارس والمستشفيات حتى

كادت تبزّ بغداد عاصمة العباسيين في أزهر ايام مجدهم تصورت هذا الجامع وقد غصّ بآلاف المصلين ولا سيما في ايام الجمع والاعياد وفي ليالي رمضان، وقد اضيئت قناديله وثرياته وصوت المنشدين والمؤذنين يعلو ويرتفع بالتسابيح والآذان. تصورت ماضيه المشرق وحاضره المحزون وقد خلا من كل مظاهر الاسلام فحزنت ورأيتني اردّد مع شوقي :

خفتَ الآذان فما عليك موحّد
يسعى .. ولا الجمع الحسان تقام
وخبت مساجد كنا نوراً جامعا
تمشي اليـــه الأُسد والارآم
يدْرجن في حرم الصلاة فواتنا
بيض الازار كأنهـن حمـام

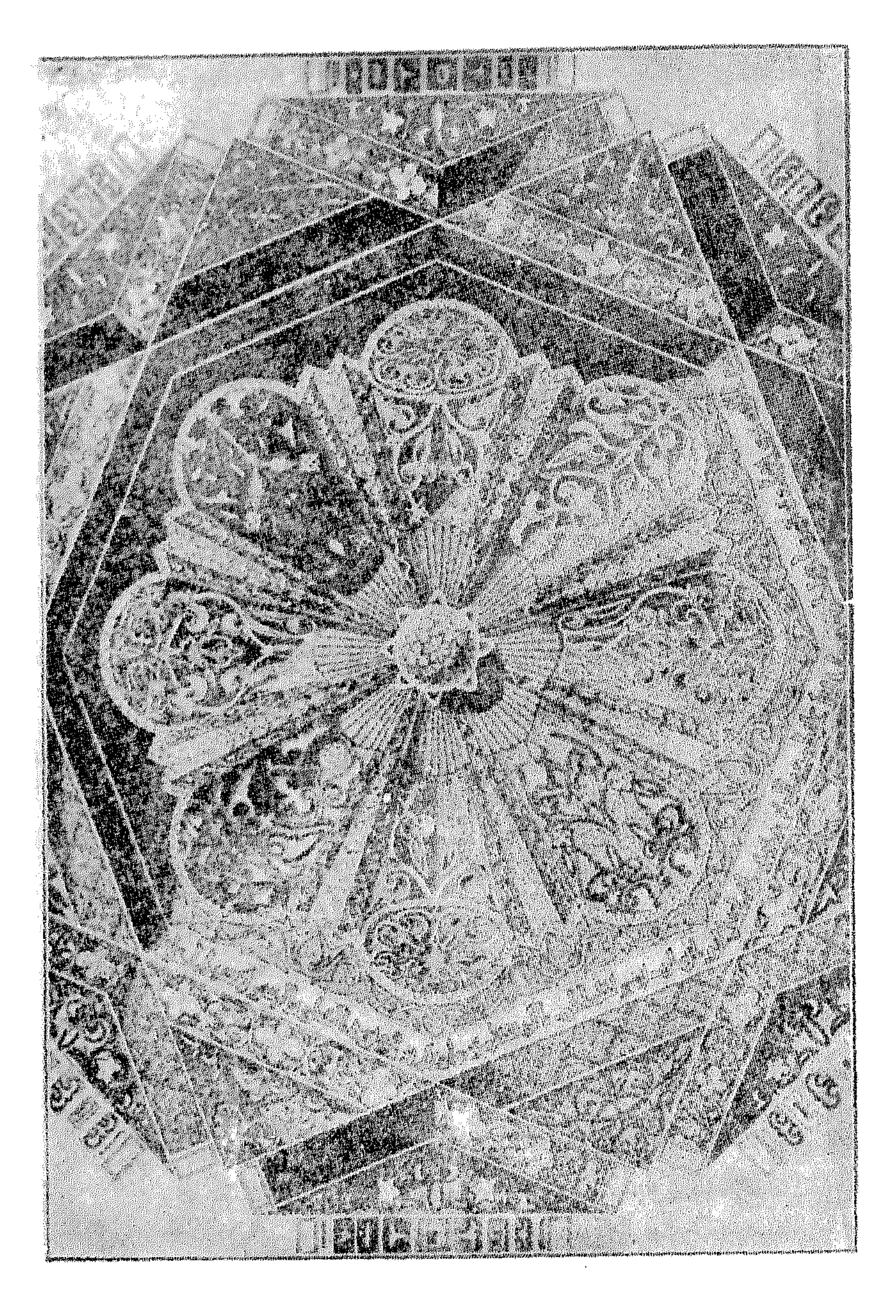
ورأيتني استخلص العبرة البالغة ممـا كنا عليه وما صرنا اليه — من امبراطورية مترامية الاطراف في الشرق وفي الغرب - الى وضـع مزر قد لا ينأى كثيراً عما كان عليه ملوك الطوائف في تلك الفترات السود التي انطوت فيها راية الاسلام بعد ان خفقت على روابي الاندلس طويلا .

خلت القرون كليلة ، وتصرمت
دول الفتوح كأنها احلام !
والدهر لا يألو الممالك منـذرا
فاذا غفلن فما عليه مـــلام !

هذا الجامع الذي يبدو لك حزيناً كيف كان ؟ مَنْ بناته ؟ ما هي الاموال التي صرفت عليه ؟

يحدثنا المؤرخون احاديث عجيبة عن بناء هذا الجامع الذي كان أعظم جوامع العالم الاسلامي كله ..

ولا علينا ان نروي قصته كما جاءت على لسان ثقاة المؤرخين ولا سيما الذين



زخارف سقف محراب جامع قرطبة



عاشوا في قرطبة وشاهدوه وهو في اعظم مظاهره وازهى زينته وابهى حلله التي تشع بنور الاسلام .

- ٤ -

يقول المقري في نفح الطيب :

واما مسجد قرطبة فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه ، ولكن نذكر من اوصافه ، وننشر من احواله ما لا بد منه فنقول :

قال بعض المؤرخين :

ليس في بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء وأتقن صنعة ، وكلما اجتمعت منه اربع سواركان رأسها واحد، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في اعلاه واسفله ..

وكان الذي ابتدأ بناء هذا المسجد العظيم عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ولم يكمل في زمانه وكمله ابنه هشام ، ثم تولى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه حتى صار المثل مضروبا به .

والذي ذكره غير واحد انه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى أن كمل على يد نحو الثمانين من الخلفاء .

وقال بعض المؤرخين :

ان عبدالرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم — بني القصر بقرطبة ، وبني المسجد وانفق عليه ثمانين الف دينار وبني بقرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام بدمشق .

وقال بعضهم :

انه انفق على الجامع ثمانين الف دينار ، واشترى موضعه — اذ كان كنيسة — بمائة الف دينار

وفي الحديث عن قرطبة التي اتخذها عبدالرحمن الداخل عاصمة ملكه يقول بعض المؤرخين :

انه لما تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة فجدد مغانيها وشيّد مبانيها ، وحصّنها بالسور ، وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ووسّع فناءه ، وأصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة منتزهاً له ، واتخذ به قصراً وجناناً واسعة نقل اليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الاقطار .

وكانت أخته أم الأصبغ ترسل اليه من الشام بالغرائب مثل الرمان العجيب الذي ارسلته اليه من دمشق الشام كما مر .

• • •

وحين ضاق المسجد بالمصلين قرر المنصور بن ابي عامر أن يوسّع الجامع ، وكانت بعض الدور المحيطة به لنفر من الاسبانيين فحرص الا يكون التوسع على حسابهم بل على حساب بيت مال المسلمين .

يقول ابن بشكوال :

لما عزم المنصور على زيادته هذه جلس لأرباب الدور بنفسه ، فكان يؤتي بصاحب المنزل فيقول له :

انهذه الدار التي لك يا هذا أريد ان ابتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم فشطط وأطلب ما شئت .

فاذا ذكر له أقصى الث ن أمر ان يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك عوضاً منها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة .

فقال : تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال .. فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ في الثمن .

- ٥ -

وفي حدود سعته ومن زاد في هذه السعة الى وصف الأروقة والأبواب والمقاصير يقول صاحب كتاب « مجموع المفترق » .

وكان سقف البلاط (١) من المسجد الجامع من القبلة الى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسا وعشرين ذراعا ، والعرض من الشرق الى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة اذرع .

ثم زاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة اذرع . فكمل الطول ثلثمائة ذراع وثلاثين ذراعا .

وزاد محمد بن ابي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعا . فتم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعا .

وكان عدد بلاطه احد عشر بلاطا عرض أوسطها ستة عشر ذراعا ، وعرض كل واحد من اللذين يليانه غربا واللذين يليانه شرقا اربع عشرة ذراعا ، وعرض كل واحد من الستة الباقية احدى عشرة ذراعا .

• • •

وبعد ان يسهب بهذا الوصف ويعدد الأذرعة طولا وعرضا ينتقل الى ابواب الجامع فيقول :

وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة في صحنه غربا وشرقا وجوفا ، واربعة في بلاطاته — يريد أروقته — اثنان شرقيان ، واثنان غربيان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان ، وجميع ما فيه من الاعمدة الف عمود وثلاثة وتسعون عموداً رخاما كلها وباب مقصورة الجامع ذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه ، قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء وثريات المقصورة فضة محضة ، وارتفاع الصومعة اليوم -وهي من بناء عبدالرحمن بن محسن- ثلاث وسبعون ذراعا الى اعلى القبة المتفحجة التي يستدبرها المؤذن .

وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ودور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف .

فاثنتان من التفافيح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها

---

(١) يريد الرواق

وفوقها سوسنة قـــد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزّج وهي إحدى غرائب الارض . وكان بالجامع المذكور في بيت منـبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفــان - رضي الله تعالى عنه - الذي خطّه بيده وعليه حلية ذهب مكلّلة بالدار والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وهو على كرسيّ العود الرطب بمسامير الذهب ..

والمنبرمؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصندل ونبع وبقّم وشوحط وما اشبه ذلك(١) ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون الف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم .

* * *

وللثريات والمصابيح والقناديل والشموع حديث طويل .

فقد ذكر ان عدد ثريات الجامع التي تسرج فيها المصابيح بداخـــل البلاطات خاصة سوى ما فيه على الابواب : مائتان واربع وعشرون ثريا جميعها من لاطون (٢) مختلفة الصنعة .

منها اربع ثريات كبار معلقة في البلاط الاوسط .

اكبرها الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة وهي تحمل الف مصباح وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر احد على وصفه ..

وفيها من السرج - فيما زعموا الف واربعمائة واربعة وخمسون ، وتستوقد هـذه الثريات الضخام في العشر الاخير من شهر رمضان ، تسقى كل ثريا منها سبعة ارباع في الليلة .

* * *

(١) النبـع من اشجار الجبال ينبت في قلتها وهو اصفر العود رزينة ثقيلة في اليد، واذا طال عليه العهد احمر ، تصنع منه القسي الجيدة التي تكرم كل ما اتخذ من غيرها لشدة النبـع ولينه . ولا يكون العود كريما حتى يكون كذلك . وتتخذ السهام من اغصانه .
والبقم خشب شجرة عظام ، ورقه كورق اللوز ، وساقه احمر يصبغ بطبيخه .
والشوحط ضرب من شجر الجبال تتخذ منه القسي .

(٢) اللاطون هو النحاس الاصفر

هذا الجامع العظيم الذي لا نظير له في دنيا الاسلام والذي كان آية من آيات الفن والروعة والجمال أصبح اليوم خواء تعصف بأروقته الرياح ، وقد عُري من كل زينة ومن كل مظهر من مظاهر الدين الحنيف ، فلا آذان يرتفع ، ولا مصلون يركعون ويسجدون ، ولا ائمة ولا خطباء ، ولا شيء غير السائحين يخطرون في أروقته ويتجولون بين اعمدته ثم يقفون مبهورين امام محرابه وما هي الا لحظات حتى يتحولوا الى الكاتدرائية يركعون ويصلون !

- ٦ -

ولبناء الكاتدرائية في قلب الجامع قصة طويلة كما قلت :

فحين جلا المسلمون عن الأندلس وثارت ثائرة الاسبانيين الدينية عمدوا الى هدم الجامع وإزالة كل معالمه ..

وبالفعل فقد هدموا قسماً كبيراً منه وأقاموا مكانه كاتدرائية ..

وحين انتهى بناؤها مما اضفى عليها من الوان الزخرفة ، بدت باهتة اللون، فما بلغت جمال الكاتدرائيات التي تزينها عبقرية الفن ، وشوهت جمال الجامع الذي تنطق كل حنية من حناياه بجمال الفن .

ولما بدا التشويه صارخاً انتبه عقلاء الاسبان وعلى رأسهم مليكهم فيليب الثاني فأصدر أمره بالتوقف عن الهدم ،وابقاء ما لا يزال بارزاً بعظمته الى الآن ، ثم أصدر قراراً بقتل كل من يحاول تخريب أي شيء فيه . وفي رواية انشرلكان هو الذي أذن بتشييد هذه الكاتدرائية قبل أن يرى الجامع ، ولما زاره بعد بضع سنين بهره جماله ، وندم على ما بدر منه وقال : « لو علمت ذلك قبلا ، لما أذنت بان تهدم حجرة واحدة من بناء هذا الجامع . انكم ببنائكم هذه الكاتدرائية وسط هذا الجامع اقمتم شيئاً يُرى امثاله في كل مكان ، محل شيء لا مثيل له ، ولا في مكانه .

وهكذا فقد انتبه الاسبانيون بعد هذه المحاولة الى الجناية الكبرى التي ارتكبوها بهذا العمل التخريبي الذي مسّ جمال الفن في الصميم .

ولا يزال عقلاؤهم الى اليوم يذكرون ذلك بندم مرير ! إذ لولا هـــذا الجامـع لما عرفت قرطبة وجه أي سائح ، ولظلت مدينة مهجورة بعـد ان كانت في عهد العرب عاصمة من اعظم عواصم الدنيا ـ تحتوي على مائة وثلاثين الف منزل ما عدا منازل كبار الوظفين وثلاثة آلاف مسجد وخمسين مستشفى وثمانمائة مدرسة وتسعماية حمام وثمانين خاناً ـ أي فندقاً ـ .

- ٧ -

بعد زيارة الجامع رجعنا الى الفندق ، وكنا خمسة على مائدة الطعـام : هندي كبيرمن موظفي هيئة الامم المتحدة ،وسيدة اميركية ذكية القلب والشعور تعمل سكرتيرة في هيئة الامم المتحدة ، ومدير محطة تلفزيون كندا وزوجتـه ، وقد اثير الحديث حول الجامع ووضعه الذي انتهى الى هذا التخليط الذي أزرى بقداسة الفن فأجمعوا جميعهم على استنكار ما اقترفه الاسبان من أعمال اساءت الى عظمة الفن ، وودّوا مخلصين ، واسبانيـا تـبزّ ايطاليا بكنائسها وكاتدرائياتها ـ ودوّا مخلصين أو مجاملين لعربي ينتظم في سلك هذه الرحلة ـ لو عمد الاسبانيون الى إزالة الكاتدرائية واعادة الجامع كما كان في سالف الازمان .

قال الهندي : ان مصلحة اسبانيا القرن العشرين أن تزيل كل اثر من مخلفات الماضي .

واجاب الكندي : وهل تستطيع ذلك ، فهي ،ومازالت ، بالرغم من الحكم الدكتاتوري الذي يستطيع ان يجترأ على كل شيء ـ ما زالت تعيش تحت سلطـان الكهنوت وديكتاتوريتهم الرهيبة !..

وتحدثت الاميركية حديثاً يبعد كل البعد عن هذا الموضوع ثم سألت الدليل عن سهرة ممتعة نقضيها في أحد ملاهي قرطبة .

وكنت متعباً فاستأذنت بعد العشاء وأويت الى غرفتي اقرأ واجترّ ذكريات الماضي بغصّةٍ وألم !

- ٨ -

تركت قرطبة صباح هـذا اليوم مغمورة بالضباب وكانت نفسي مغمورة بالضباب .

دخلت المدينة متهلّل الوجه وخرجت منها كئيب النفس لعوامل كثيرة ألمت اليها الماعاً ، ولا أقول هذا من حيث الشعور الدينى فانا رجل متسامح ، وكثيراً ما افلسف هـذه الامور فلسفة قداحاسب عليها من المتزمتين : واحمد الله ان فكري قد وسع كل شيء ،وأصبح قلبي ، كما يقـول ابن عربي ، قابلا لكل صورة :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صـار قلبي قابـلا كل صورة
فمرعى لغزلان ، ودير لرهبـان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بـدين الحب انىّ توجهت
ركائبـه فالحب ديني وايمـاني

وحب الفن هو الذي تركني أضيق بهذه الكاتدرائية تجثم في قلب الجامع فتشوه الكثير من معالمه ..

ولشدّ ما آلمني الدليل ليبرر عمل اجداده في إقامة هذه الكاتدرائية فقال لولا اقامتها هنا لحطم البربر الجامع !!

وكأني به قد خجل ان يقول الحقيقة ، فبرّأ قومه مما اقترفوه من إجرام ، وإن غالط الواقع بهـذا التخليط المسموم الذي كثيراً ما تحشى به عقول السواح السذّج !

• • •

نعم ، تركت قرطبة مغمورة بالضباب وكانت نفسي بدورها مغمورة بالأسى والضباب .

هذا ، وقد حرصت قبل أن اغادر قرطبة ان أزور الزهراء المدينة التي تحدث عنها الادباء والشعراء والمؤرخون ووصفوها وصفاً عجيباً ـ وصفوا قصرها وجامعها ومنازلها وحدائقها وتماثيلها ابلغ وصف ، كما وصفوا ما كانت تضم من حرم وخدم وحرس وحشم ..

أين تقع هذه المدينـــة التي اقامها عبد الرحمن الناصر لتكـون مقر خلفـاء بني أمية وسماها « الزهراء » باسم إحدى محظياته فنقش ، فيما يروى ، صورتها على بابها !

سألت الدليل عن موقعها وأبديت رغبة ملحة بزيارتها .. فوجم .. ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وقال : انها ليست في برنامج الزيارة ..

وحين ألححت .. قال انها بعيدة ..

قلت لا بأس .. ولا بد من زيارتها ..

ورسم لي مخطط السير واستأجرت سيارة قادتنا الى منطقة تبعد خمسة كيلو مترات عن قرطبة ..

لم نكد نصل حتى قال لي الدليل هنا كانت تقوم مدينة الزهراء ـ في هذا المنحدر من الارض بين جبل العروس من جهة الشمال والوادي الكبير من جهة الجنوب .

ورأيتني في أرض خلاء ..

وفي ظني انني سأرى معالم « فرساي » الاندلس وقصرها العجيب ، وخاب هذا الظن ، وأخذت اتساءل ، وان كان الجواب غير خاف عني :

اين جامعها الذي فرشت ارضه بالرخام الخمري ؟ اين منبره البديع الزخرف ومقصورته العجيبة الصنعة ؟ اين البركة العظيمة وأسدها المذهب وقد انبعثت من عينيه جوهرتان لامعتان ؟

واين القصر الذي اتفق جميع من زاره من ملوك وسفراء وامراء وعلماء

على أنه لا مثيل له بين افخم القصور .

لقد كان الناصر – كما يقول ابن اصبغ الهمذاني – : كلفنا بعمارة الارض واقامة معالمها واستنباط مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالةعلى قوة الملك وعز السلطانوعلوّ الهمة فأفضى به الاغريق في ذلك الى ان ابتنىمدينة الزهراء التي وصفها الشريف الادريسي بقوله :

« مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الاعلى يوازي علىالجزء الاعلى منهاقصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الثاني بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع .. »

ويقول المؤرخ أبو مروان بن جنان صاحب التاريخ الكبير في اخبار الاندلس :

« ان مباني الزهراء اشتملت على ٤٣١٦ سارية بين كبيرة وصغيرة ، حاملة محمولة ، منها ما جلب من مدينة روما ، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية وأن مصارع ابوابها ! صغارها وكبارها تنيف على خمسة عشر الف باب ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وقد جلب لها الرمر الابيض والوردي والاخضر من مختلف البلدان كما جلب الحوض المنقوش المذهب ، الغريب الشكل ، الغالي الثمن ، والحوض الصغير المنقوش بتماثيل الانسان – جلبا من القسطنطينية ، وقد نصب هذا الحوض الصغير في غرفة المنامة وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الاحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، صورة أسد الى جانبه غزال ، الى جانبه تمساح ، يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر – كل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من افواهها . . »

وكتب التاريخ تسهب في الوصف حتى ليخرج القارى وفي ذهنه صورة ترمز الى أن الزهراء كانت في عهد الناصر اجمل من « فرساي » باريس وأجمل من قصرها واعظم . . .

لقد أخذت التجول في هذه الارض الخلاء لعليّ أرى طلال هذه المدينة

العجيبة وآثارها الدالةعلى عظمة العرب خلال حكمهم فلم أر شيئاً .. حتى الاطلال قد اندثرت ..

وقد عدت اندب الماضي واتساءل :

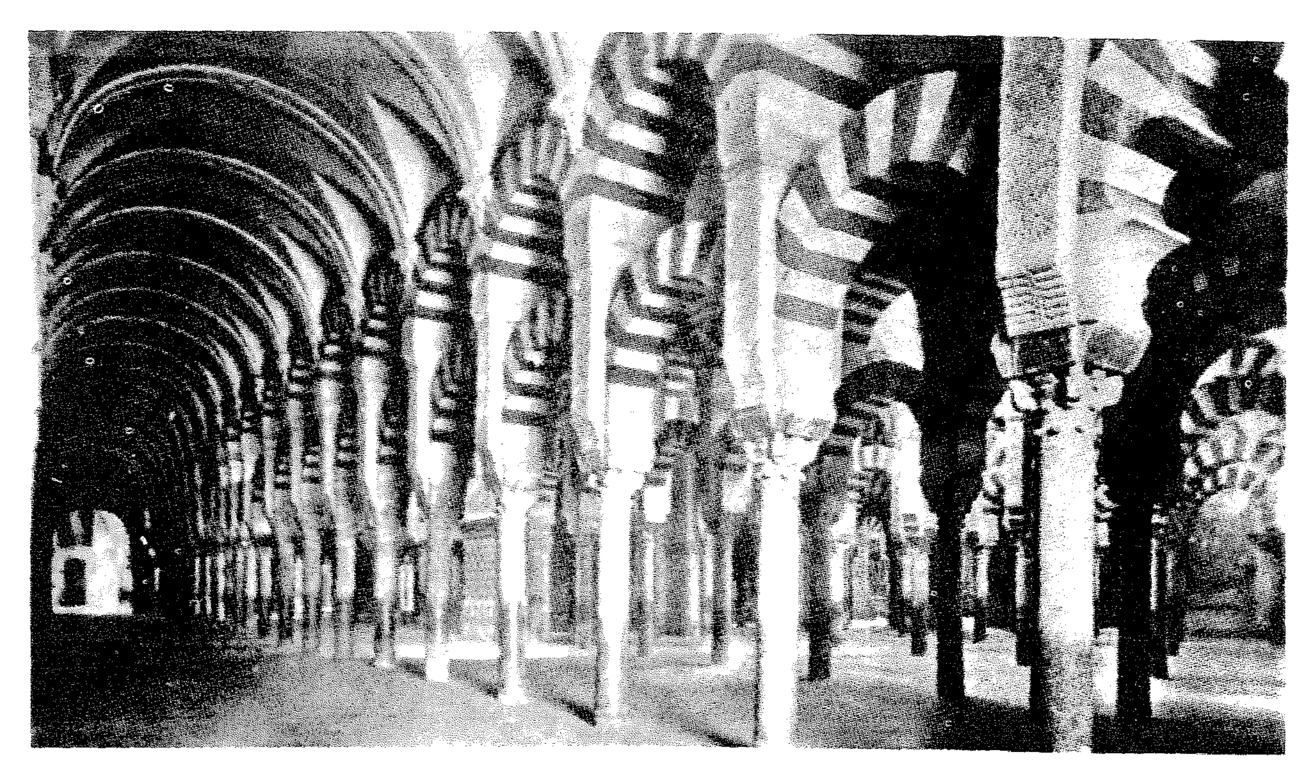
اين الزهراء ؟

اين قصرها العجيب ؟

اين جامعها وبركتها وحدائقها وقصورها ؟

لم يبق من كل دلك غير ارض تعصف في ساحتها الرياح ..

وا اسفاه !



جامع قرطبة (الجناح الشرقي)



العودة الى مدريد

رجعت الى مدريد لأقضي بضعة ايام قبل عودتي الى أرض الوطن .

وقد مررنا بغابات ظليلة من اشجار الزيتون قال لنا الدليل ان في هذه المنطقة اربعين مليون شجرة زيتون ..

انه رقم مذهل !

ولا يهمني صحته بقدرما خلبني منظره .. فحيثما التفت الانسان لا يقع نظره الا على غابات واحراج كثيفة من اشجار الزيتون .

وصلت الى مدريد بعد أن طوفت في مدن الاندلس الكبرى والصغرى ، وقضيت بعض لباناتي منها ، فعشت لحظات حيّة مع التاريخ المنفى .

والاندلس ، ولمدنها وتاريخها المليء بالاحداث الكبري — لهذا التاريخ ذكريات حلوة مرة لن يمحي اثرها من نفوسنا مهما تقادم عليها الزمن

فقد ترك ادباؤها وشعراؤها ومؤرخوها ومتصوفوها وفلاسفتها من الآثار التي تعتبر زهرات عبقة في حديقة التراث الانساني ، فلا نكاد نرجع اليها حتى نقرأ آيات مشرقات من أثر العقل الحي — العقل العربي المنطلق الذي انتج فأبدع .

وصلت الى مدريد متعباً ..

وأويت الى غرفتي في فندق بلازا .

ولم أكد أصل حتى اتصلت بصديقي الاديب الدكتور مصطفى البارودي الذي تكرم مشكوراً فرسم لي خطوط هذه الرحلة .

ومن حسن حظي أن التقي بهذا الصديق في مدريد ، وكان منتدبا من الجامعة السورية لدراسة التنظيمات الادارية والحقوق الادارية ـ دراسة اساليب تدريسها نظرياً في الجامعات ، وعملياً في المؤسسات .

وقد قضى فترة طويلة في مدريد استطاع خلالها أن يوثق صداقات متينة مع كبار رجال الفكر والحقوق والادارة ، والقى في جامعة مدريد عدة محاضرات عن التنظيم الاداري في سورية ، حاضره ومستقبله ، كما القي عـــدة محـاضرات في كلية العلوم السياسية كان لها وقعها الكبير في الوسط الجامعي — أقول من حسن حظي ان التقي به فيمدريد ، فكان نعم الرفيق الاديب والصديق الاريب .

نعم ، لم أكد اتصل به حتى تفضل مشكوراً وجاءني الى الفندق يستمع مني أقاصيص هذه الرحلة ، ثم تكرم فنظم لي برنامجاً لزيارة معاهد مدريد ومتاحفها وكاتدرائياتها . معالمها التاريخية ، احياءها الشعبية والارسطقراطية ..

ولقد طوفت بجميع هذه المعالم البارزة تطواف من سيقضي اياما قلائل .. ولا عليّ ان أقول تطواف شركة كوك بالسواح الاميركيين !

كنت أقضي ساعات النهار في زيارة المعاهد والمتاحف والكاتدرائيات ، والليل في مغانيها المشعة ، وقد تطول السهرة حتى الثالثة بعد منتصف الليل فأعود الى الفندق وأنا شبه نشوان ، لا احس بأي اثر للتعب ولا لمضض السهر ..

فمغريات مدريد ، وطرف الفن ، والحياة البهيجة المرحة ، تعطي السائح قوة ، وتمنحه الصحة والنشاط .

وفي الامسيات كنت اتجول بصحبة بعض الرفاق في شارع الكاستالينا

الجميل ـ هذا الشارع الطويل الذي يبلغ عرضه مائة متر ويرتفع كل ميدان من مبانيه تمثال ، وحوض ينبعث الماء الرقراق كما قامت على جانبيه ممرات خضراء ، الى مقاهٍ مترفة يحلو لك أن تقضي فترات فيها فتشعر كأنك في مقاهي الشانزه ليزه في باريس ..

ومن كاستالينا الى سيرانو الى شارع الجنرال مسولا . . فحيثما سرت تجد الواناً من الحياة البهيجة التي تصور مرح الاسبانيين ومحبتهم العميقة للحياة ..

فاذا انتقلت الى الكالا أي القلعة وجدت نفسك في جوٍ خليط من زمر البشر ، فاتنات يمرحن ضاحكات ، ويروين القصص والحكايات ، غاديات رائحات و « الدوانجوانيون » في إثرهن يغزون ويرمزون ويلمزون ويقهقهون فترن الضحكات والقهقهات وكأنك في مشهد سينمائي حي .

ولا أغالي حين أقول ان الانسان يشهد في هذا الشارع وفي شارع الكاستالينا المترف – يرى مشاهد سينمائيه حية شبيهة بما يراه احياناً فيشانزه ليزه باريس !

وتستمر الحياة في عنفها وبهجتها حتى ساعة متأخرة من الليل .

قال لي صديقي الدكتور مؤنس الذي قضى شطراً كبيراً من حياته في مدريد :

« أهل مدريد مشهورون في العالم كله ، لهم مزاج خاص لا يشاركهم فيه أحد من أهل العواصم ، ففيهم انس لطيف ، ولا ينزل ببلدهم غريب الا نسي غربته بعد ساعات . فهم يحدثونك في غير كلفة ، ويقبلون عليك من غير إثقال وفيهم مرح لطيف هادىء ، يحبُّون الاستمتاع البرىء ، ويرون ان الانسان في الدنيا خلق ليعيش لا ليشقى ، ولذا فهم لا يغادرون فراشهم الا في التاسعة صباحا ويفطرون في العاشرة ، ويتغدون في الثانية بعد الظهر ، ويتعشون في العاشرة مساء ، ويذهبون الى الخارج أو دور السينما في الحادية عشرة ، وقد يخرجون في الواحدة فيميلون الى المقهى حتى مطلع الفجر .. »

وهذه الحياة قد لا يستطيبها احدنا، وقد اضطررت ان اسهر ليلتين شعرت خلالهما بالتعب والضنى ، ولا عليّ ، اذا اعترفت انهما سهرتان تركتا في نفسي أثراً لا ازال اترنم بحلاوتهما الى الآن .

- ٢ -

قبيل سفري ، تفضل الدكتور البارودي فأقام على شرفي حفلة عشاء دعا اليها صفوة من اكابر رجال الفكر في اسبانيا بينهم وكيل وزارة المعارف الاستاذ ريو فيلانوفا وعميد كلية الحقوق وعميد كلية العلوم السياسية وأبو الحقوق الادارية في اسبانيا الاستاذ جوردانا دي بوزاس وغيرهم من الاساتذة الجامعيين الذين عمل معهم في حقل العلوم الادارية .

كانت المأدبة انيقة تخللها احاديث عن سورية في عهدها الجديد ، وعن صلات العرب باسبانيا ، وعهود بني أمية الزاهرة في الاندلس وما تركوه من آثار ترمز الى حضارتهم وتكشف لهم الكثير من تاريخهم الغامض . وكان الى جانبي على المائدة السنيور فيلانوفا وكيل وزارة المعارف ، واذا به يتحدث طويلاً عن أنفة العرب وعظمتهم ويقول مباهياً انه من أصل عربي ويمتّ الى الامويين بنسب عريق .

وافهم فيما بعد أن الاسر الارستقراطية التي تتميز باصالتها ونبالتها تعتز بالأرومة العربية وترى في ذلك موضع فخار واعتزاز .

لقد كان لهذه الحفلة التي تبودلت فيها الخطب والانخاب تعزيزاً للصداقة السورية الاسبانية كان لها أثرها في نفوس جميع من حضرها ، ولا اتزيد حين أقول أن الدكتور البارودي حين إقامته القصيرة في مدريد خلق صداقات طيبة ، واعطى صورة حية عن الشباب الجامعي المثقف.

-٣-

الى الاسكوريال

كان لا بد وأنا في مدريد .. من زيارة الاسكوريال ـ زيارة المكتبة التي تضم نفائس المخطوطات العربية والتي طبقت شهرتها الآفاق .

وكان من حسن حظي أيضاً ان التقي بصديقي البحاثة الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد الاسلامي في مدريد ـ هذا المعهد الذي اسسه الدكتور طه حسين يوم كان وزيراً للمعارف ليقوم بالدراسات الاسلامية في اسبانيا على نطاق واسع فأدى أعظم الخدمات وما زال يؤدي رسالته العلمية بنشر الكثير من المخطوطات والدراسات نشراً علمياً مركزاً ـ أقول لم أكد ازوره واحدثه عن رغبتي بزيارة مكتبة الاسكوريال حتى تفضل مشكوراً بمرافقتي .

كانت رفقة سعيدة سبقتها حفاوة بالغة ومأدبة سخية في مطعم « اسباني الطابع »

• • •

في التاسعة صباحاً تركنا مدريد بالقطار السريع الى الاسكوريال وهي تبعد قرابة الخمسين كيلو متراً ، فوصلنا اليها في العاشرة والنصف تقريباً ..

والاسكوريال اسم يطلق على بناء ضخم يضم ديراً وكنيسة ، وقصراً ومدفناً كان للملوك الاسبان ، ويقوم على رابية موحشة قاحلة من ربى جبل وادي الرملة .

وأن للبناء خمسة عشر مدخلا ، وسبعة ابراج ، وما لا يقل عن اثني عشر الفا بين نافذة وباب . شيده عاهل الاسبان فيليب الثاني وفاء لنذر نذره والحرب قائمة بينه وبين فرنسا ، وقضى في تشييده واحكامه احدى وعشرين سنة . وانفق في ذلك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فجاء من أضخم واعظم ما بنى الاسبان ، وهو من قبيل المنشآت الشخصية الهائلة التي لا يتيسر القيام بها إلا في ازمان الاستبداد والجبروت . فهو يشبه من هذه الناحية هيكل بعلبك

وكثيراً من مباني المصريين القدماء (١) ...

وقبل ان ندخل المكتبة جلنـا جولة عامة في ابهاء القصر الفخم ثم الدير فالكنيسة فمدافن الملوك وقد رجعت الى المكتبة اقرأ فهرسها وانقّب عن نوادر المخطوطات واذ بصديقي الدكتور مؤنس يقول لي مهلا : فقد اصبحت مخطوطات الاسكوريال اسطورة من الاساطير ، فهي في عقيدة بعضهم عشرات الآلاف وقد يزيد الآخر هذا الرقم وقد ينقصه ، فالواقع ، أن عددها لا يزيد على الألفين ،هذا من حيث الكم اما من حيث الكيف فان عدد المخطوطات النادرة اقل من القليل، وأن المخطوطات الصالحة للنشر لا تزيد على /٣٥٠/

والواقـع : أن المخطوطات العربية في الاسكوريال حتى أواسط القرن السابـع عشر كانت تبلغ عدة آلاف ، وكانت انفس مجموعة من انواعهـا ، ولكن حريقا شب في الاسكوريال سنة ١٦٧١ التهم ثلاثة ارباع هذا الكنز الفريد .

وكانت الحكومة الاسبانية الى ذلك الحين تحرص كل الحرص على إخفـاء المخطوطات العربية عن نظر كل باحث ومتطلع ، وكان الكتّاب الاسبان انفسهـم متأثرين بنزعة الدين والجنسية يتجنبون التنقيب في هذه المصادر النفسية الـتي تلقي ضوءاً كبيراً على تاريخ اسبانيـا وحضارتها وثقافتها ايام الدولة الاسلامية ، ولا يرجعون في ذلك القسم من تاريخ بلادهم إلا الى المصادر القومية ، ومن ثم كانت كتاباتهم تفيض باسباب التحامل والتشيّع ، ولم تفق الحكومة الاسبانية من سباتها إلا بعد نكبة سنة ١٦٧١ بمدة طويلة ، فانتدب العلامـة المستشرق «كازيري» ليضع فهرساً للبقية الباقية من المخطوطات العربيه وعددها الفوثمانمائة وخمسون ، وكانت ثمرة جهود العلامة كازيري مدى أعوام طويلة معجمـه الضخم المسمى « المكتبة العربية الاسبانية في الاسكوريال »

ومن أثمن ما في الاسكوريال مخطوطات عربية ترجع الى سنة ١٠٠٩ م كتبت على ورق القطن وعشر على أخرى ترجـع الى سنة ١١٠٦ م كتبت على

(١) العبادى : صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ص ٢٠٥

ورق الكتان مما يشهد لعرب الاندلس بفضل السبق والبراعة في هذه الصناعة ، ثم على طائفة من المخطوطات التاريخية تدل على ان العرب كانوا اول من استعمل الديناميت في الحرب وغير ذلك مما يلقي كثيراً من الضياء على حقائق لبثت قرونا تحتضر في ظلمات الاسكوريال (١) ..

ومخطوطات الاسكوريال هي بقايا الكتب الاندلسية القديمة التي سلمت مما أصاب آثار مسلمي الاندلس من الضياع والتلف في حروبهم مع الاسبان ، وقد جمع شتات هذه البقايا فيما يقال فيليب الثاني وخلفاؤه من بعده واودعوها ناحية الاسكوريال .. ثم مكتبة الاشراف الحسينيين من سلاطين مراكش (٩٥١) (١٠٦٩) هـ وذلك انه في اوائل القرن الحادي عشر الهجري وقعت فتنة بين مولاي زيدان سلطان مراكش (١٠١٢ - ١٠٣٨) وبين اخيه ابي فارس الثائر عليه ، واضطر مولاي زيدان الى التحول عن مراكش - فاستأجر سفينة فرنسية تحمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض ثغور المغرب الأقصى الى اغادير ، فلما اقترب من اغادير حصل خلاف بينه وبين ربان السفينة على مبلغ الاجرة المستحقة فما كان من الربان الا أن انسل بالكتب تحت جنح الليل يؤم مرسيليا ، فلما كان بعرض الطريق عرضت له سفينة اسبانية غصبته الكتب وانطلقت بها الى اسبانيا ، وكان خاتمة مطاف تلك الكتب أن اودعت هي ايضاً دير الاسكوريال (٢) .

• • •

قال صديقي الدكتور مؤنس بعد أن رآني غائصاً اقلب صفحات بعض تلك المخطوطات التي كتبتها ايد مباركة اخلصت للعلم - قال : أن تراثنا في الاندلس ليس هذه المخطوطات فحسب بل في الوثائق المحفوظة في الاديرة ، وقد لا تعلم ان اقبية ديري شلمنقه Salamanca وسقوبيه Segovia ما يقرب من عشرة آلاف وثيقة باللغتين العربية والاسبانية . وهي الرسائل السياسية التي كان يتبادلها الملوك

(١) مجلة الحديث عدد ٣ السنة ٨ عنان

(٢) صور وبحوث من التاريخ الاسلامي : العبادي ص ٢٠٦

والامراء منذ الفتح الى انجلا العرب عن اسبانيا ، ولاشك ان نشر هذه الرسائل سيلقي اضواء جديدة على تاريخ العرب في تلك الفترات .

وقال : ان الرهبان يحتفظون بهذه الوثائق كأثمن الكنوز والمخلفات ، ولا يسمحون لأحد بالاطلاع عليها الا لمن يثقون به .

ومراجعتها وفك طلاسمها ونشرها يحتاج الى سنوات ، والى جهود ، والى صبر علماء افذاذ وقفوا أنفسهم لكتابة التاريخ الاندلسي .

وحين تضع الحكومة الاسبانية يدها على هذه الوثائق وتمكّن الهيئات العلمية المعينة بكتابة التاريخ دراسة هذه الوثائق ونشرها فسنرى صفحات جديدة من تاريخ العلاقات بين العرب والاسبان .

وانا لنرجو أن تتحقق هـذه الامنية العلمية قريباً ، وما ذلك بعزيز على الحكومة الاسبانية التي أخذت تولي الآثار العربية بالغ اهتمامها وتعنى بالمخطوطات العربية التي تلقى الاضواء على تاريخ الاسبانيين خلال الفترات التي حكم فيها العرب الاندلس .

- ٤ -

وعدت الى مدريد .

ثم عدت الى الوطن وفي نفسي حنين لعودة ثانية الى الاندلس ،الى اسبانيا التي وصفها قائد من قادة الجيش العربي الى الخليفة الاموي بقوله :

شامية في طيبها وهوائها ، يمنية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، اهوازية في عظم جبالها ، صينية في معادن جواهرها ، عدنية في منافع سواحلها .

فالواقع ، ان العرب تركوا الكثير من آثار عبقريتهم في اسبانيا .. فحين فتحوها كانوا يحملون في اطواء نفوسهم رسالة ـ رسالة حب وخير وتمدين .

يقول غوستاف لوبون :

لم يكد العرب يتمون فتح اسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها فاستطاعوا في أقل من قرون ان يحيوا ميت الاراضي ويعمّروا خرب المدن ويقيموا



برج الجيرالده او برج لعبة الهواء في اشبيلية



فخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالامم الاخرى .

ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في اوروبا زمناً طويلا ..

وقال :

وقد احسن العرب سياسة سكان اسبانية كما احسنها أهل سورية ومصر ! فتركوا لهم اموالهم و كنائسهم وقوانينهم وحق المقاضاة الى قضاة منهم (١)

ان روح التسامح التي رافقت سياسة الحكم في اسبانيا اذهلت الكثيرين من المؤرخين ، ولا سيما حين يقارنون بين معاملتهم للاسبانيين حين الفتح ومعاملة الاسبانيين للمسلمين حين أُجلوا عن أرض الاندلس .

وأهونها نصيحة كردينال طليطلة التقي الذي كان رئيساً لحاكم التفتيش والذي افتى بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساء ، شيوخا وولدانا ..

يقول غوستاف لوبون :

وقد ظن رئيس الاساقفة الاسباني اكزيمنيس انه بحرقه مؤخراً ما قدر على جمعه من كتب اعداء دينه العرب ، أي ثمانين الف كتاب ، قد محا ذكرهم من صفحات التاريخ الى الأبد ، فما دري أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد اسبانية يكفي لتخليد أسمهم الى الأبد (٢) .

والواقع ، ان الامة العربية التي لعبت دورها الخطير في تاريخ الحضارة البشرية لا في الاندلس فحسب بل في كل بقعة من بقاع الدنيا ، وكان لهذه الحضارة اثرها الفعال في اوروبا التي كان اهلها يتخبطون في عماية سادرة من الجهالة والظلمات .

ان الامة العربية ، وقد نفضت عنها غبار الخمول وأخذت تلم شعثها وتوحد كلمتها جديرة ان تعاود بناء نفسها من جديد لتستطيع ان تحمل رسالة الحب والايمان .

فتاريخنا ، بالرغم مما فيه من فجوات ، قد ترك في تاريخ الحضارة صفحات مشرقة

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٢٩ ـ ٣٣٥

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٩

اشار اليها اكثر من مؤرخ اوروبي منصف وحسبي الالماع الي بعضها .

يقول جوليفة كستلو Colivi Casïelai في كتابه قانون التاريخ La loi de l'hisiotire : « وقبض العرب بأيديهم ، خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف بل بما أحرزوا من اساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية . وكانت المدنية العربية قصيرة العمر ، الا انها باهرة الاثر وليس لنا إلا ابداء الاسف على اضمحلالها .

لقد كانت المملكة العربية من السعة والانتشار بحيث يتعذر بقاؤها، وسرعان ما تمزقت بتأثير المنافسات السياسية والدينية .

ومما قال :

ان اوروبا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر . وعنها أخذت الفكرة الفلسفية والعلمية التي سرت اليها سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى ، وان اوروبا لتتجلى لنا منحطة جاهلة امام المدنية العربية وأمام العلم العربي والآداب والفنون العربية ، واوروبا تدين بالهواء النافع الذي تمتعت به في تلك العصور للافكار العربية ، وقد انقضت اربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق

• • •

وقال لويجي رينالدى من علماء ايطاليا وهو يتحدث عن الامة العربية واثرها في ايطاليا واسبانيا :

فامة هذه مدنيتها ، وتلك آثارها ومفاخرها ، جدير بنا، واجب علينا ان نحفظ لها تلك اليد التي قدمتها الينا واسلفتها لنا ، ولست أدري لماذا لا نسمع كلمة اعجاب بالشعب العربي العظيم الذي ترك في طريق المدنية آثاراً عديدة ، والذي حمل معه اعظم المعونات واجل الخدم للنوع الانساني ، ولا يبخل على العرب باعطائهم المقام اللائق بهم ، بانزالهم المنزلة التي استحقوها بجدارة الا كل جاهل للتاريخ .

وقد خطت ايديهم صحائف بيضاء فاخرة يجب على كل انسان ان يحبهم من اجلها .. ويحزنني ، لعمر الحق ، كما يحزن غيري ممن ينصفون ، ان يكون بيننا نحن الاوروبيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل الى احتقار العرب ، وحسبانهم من امة ادنى من امتهم ، وان نرى كلمة عربي عندنا تدل على معنى غير التمدن ، وهذا بلا شك افتراء ونكران للجميل ،فان هذا الشعب وان سقط من شاهق مجده ونزل عن المنزلة العظيمة التي كان فيها ، لا يزال يحفظ صفاته العجيبة وذكاءه النادر ، مما يتحلى به كل متعلم راق ، وانا لا نزال نذكر للعرب حسن فراستهم وقـــوة ملاحظتهم للطبيعة ، وسرعة خاطرهم ، وها نحن اولاء لم نصل الى ما وصلنا اليـه من المعرفة الا بفضلهم ، فلذلك نشعر بعطف عظيم على ابناء الصحراء ، ولا نزال نذكر لهم بالشكر والامتنان اياديهم البيضاء علينا في الماضي ،ولا يسعنا في الحاضر إلا ان نمد اليهم ايدينا كي ينهضوا ويتبؤوا المكان اللائق بهم تحت الشمس حتى يشتركوا معنا في استثمار تلك المدنية التي كانوا لها موجدين وعلى شأنها عاملين ».

الفهرس



